وسيرة رجل

في

التحوّلات الأولى

رواية

قصي الشيخ عسكر

قصي الشيخ عسكر

سيرة رجل في التحوّلات الأولى

رواية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القارىء:

بإمكانك ان تقرأ هذه الرواية من البداية الى النهاية اي قراءة طبيعية، واذا أعجبك ان تبدأ من المنتصف الى البدء ثم العودة الى النهاية، او من النهاية الى البداية فافعل ذلك. واقول لك ابدأ من ايّ فصل ترغب فليس لدي اعتراض على عملك.

اما بالنسبة لي فلم اتعمّد ان افعل ذلك كلّ ما فعلته انّي حاولت ان أكتب رواية متميزة في الشكل والمضمون، فقد حاولت من حيث الشكل ان اروّض اللغة بقدر الامكان، واخرج عن الأطر التقليدية للرواية بحيث اعطي للقارىء الحرية في البدء والختام دون ان يؤثّر ذلك في التجاوز على البنية للسرد القصصي او يطبع العمل الادبيّ بطابع التكلّف.

ويتلخّص المضمون في رجل يصبح رمزاً للامّة بعد نفيه لكنه لم يقدم ايّ شيء، وحين يعود الى الوطن يجد اصدقاؤه المخلصون وغير المخلصين منهم انّ الشعب اذا عرف بعودته دون ان يقدم شيئاً فإنّ أمل المجموع ينتهي وبذلك يُصاب المجتمع بخيبة وربّما ينهار، فيتخذ المجتمعون (وهم من معاصريه في بداية عمله و شهرته) قرارا يقضي بأن تُنهى حياته بأيّ شكل او يرجع كما اتى دون ان يعلم بذلك احد حتى لا تصدم عودته السلبية المجموع الذي انتظره طويلاً.

من اجل ذلك وجدتني ملزماً ان اقدم هذا العمل للطباعة بالرغم من انّ هناك رواية ستتبعه عنوانها «العودة للوجه القديم» كتبت عام ١٩٨٥، فأرجو الا يكون هناك خلاف بيني وبين القارىء الى ان نلتقي ثانية في رواية (عودة للوجه القديم) التي لا اعتقد انها بحاجة الى تقديم.

قصي الشّيخ عسكر

الهجرة الثانية

حين تحوّل الى أسطورة اصبح ذا شهرة. تخيّل نفسه رجلاً مغموراً، لكنه قبل قليل يخرج من جلده وفي الصحف اعلانات يقرؤها الجميع: إنّه الرجل السمكة. ليس تمثيلاً بل هو الحقيقة. شيء خارق ان يكون رجل ما سمكة. هذه عوالمه التي ابتكرها لا ينازعه فيها أحد. الصحف نفسها تعترف بأنّ الآخرين مهما أوتوا من مواهب لا يستطيعون ان يتحوّلوا الى انسلاخات اخرى فيجمعون بين البرّ والماء.

يجلس قبالته شخص آخر. رجل مصفرّ الوجه، طويل القامة، يرتدي سروالاً أسود، وقميصاً بنّي اللون، أمّا ربطة العنق فتكاد تلفت النظر بضيقها. بينما يترك هو مكانه، ويتمدّد على الرمل، فيدبّ الدفء في مفاصله الملتهبة.

منذ زمن فارق الشمس. الرحلة طويلة، وتحت الماء ظلام. لم يكن القاع مستوياً. وفي كلّ مرّة تواجهه هزّة عنيفة. ظنّ عمله رحلة سهلة يتسلل بها مع التّيار، فلا يحسّ به أحد، وقد لفت انتباه الاسماك بشكله الغريب. في بادىء الأمر لم يشعر بصعوبة العوم، اذ كان ينزلق بذيله والزّعانف، لكنّ المسافة التي تبدو على البرّ قصيرة تستهلك زمناً طويلاً تحت الماء. أحياناً لا يعرف اتجاهه. حساسيّة السمك عنده

ضعيفة. كان قد نسيها على البرّ في الهجرة الأولى. اعتمد في سيره على ما رسمه له البرّ، فيعوم الى أسفل. يعتقد انّه يتّجه الى الأمام، فيصطدم بالقاع الرّملي، ويرى نفسه منقلباً، يظلّ ذيله يتحرّك، وهو باقٍ مكانه لا يشعر بالتعب. غريبة هي عوالم الماء التي فارقها طويلاً، وعاد اليها غريباً.

يلتفت الى الرجل الآخر:

- سيدي أخبرنا كيف تجمع بين الماء والبرّ؟

- هل تستطيع ان تخبرني لماذا ترتدي اللون البنّي والأسود؟

- سيدي أنا أتحدّث اليك كصديق رافقك طويلاً!

- أنا لا أعرفك من قبل!

- اعتبرني أيّ شيء.

- هل كلّ من على البرّ أيّ شيء كان؟

يلوح الغضب على صاحب الوجه المصفرّ. يجمع أوراقه ويسير باتّجاه الطريق العريض الى منحدر غير مستقرّ، كأنّه يبحث عن شيء فقده، يبقى هو يتطلّع في الشمس ويضجر، وها هو يغادر المنتجع الرمليّ الى حيث لا يعرف.

يمين الطريق غابة، وعلى بعد خطوات درب ترابيّ تحفّ جانبيه أشجار البلّوط.

- هذا أنت أليس كذلك؟

- نعم هذا أنا.

يشاهد من بعيد خيال امرأة، فيتجسّد له الماضي بحلّة جميلة. هنالك أمّه وبنت الجيران، أمّه التي ودّعها، ولم يرها منذ سنوات. تحمله الذكرى الى ساعات الصباح. كان طفلاً صغيراً. يوم أدخلوه المدرسة هرب لأنّه كان خائفاً. يحبّ البيت كثيراً، ويحسد الأطفال الأصغر سنّاً منه. المدرسة واسعة وجميلة. في مقدّمتها حديقة تكاد تكون غابة صغيرة لأشجار اليوكالبتوس. صفّهم قريب من المراحيض. يوم فاضت بالبول رأى الطلاّب الأكبر سناً يقفزون عليها. حاول ان يجاريهم، ويثبت انّه يستطيع القفز، فسقط في الدّنس. ضحكوا منه كثيراً. ضربته أمّه، أمّا أبوه فقد منع عنه المصروف أسبوعاً كاملاً.

لقد هرب من المدرسة أوّل يوم. جاء شرطيّ صديق والده الى البيت وأعاده، ثمّ أصبح الأمر عادياً بحيث اقتنع تماماً أنّ الصبيّ اذا غاب عن المدرسة بلا مبرر حضر شرطيّ الى البيت، وأعاده بالقوّة!

كانت والدته توقظه في الصبّاح. تأتي بصينيّة الفطور الى سريره، ثمّ تلبسه ملابسه، والحقيقة أنّه كان أكثر الطلاّب وسامة. الزمن يبدو له قريباً والسنوات تجري أمام عينيه بدقّة.

قالـوا له بعـد ان خرج ولم يعـد : بنت الجـيران تزوّجت من غريب وانقطعت أخبـارهـا . قد لا يصدق ما يسمع ، فبالرغم من أنّـه جار، ووالـده من الـوجـوه المعـروفة . هذا لا يعني أنّه يستطيـع الـزّواج! هنـاك ظروف تحول دون ذلك . للفتاة أكثر من ابن عمّ ينافسونه عليها، فكيف تتزوّج من غريب وترحل؟

حدث هذا قبل ان يصبح له زعانف، ولا بدّ أن يتغيرّ كلّ شيء .

- يا سيدي انّ الأشياء غير ثابتة .

- قد تصدّق أنّ بعض الاشياء ثابتة .

يكفّ عن الالحـاح، وينسحب شبه مهزوم الى جانب الطـريق، تمتـدّ يده الى ثمـرة بلّوط فيلتهمهـا دون ان ينتبـه لمرارتها، ثمّ يسير باتجاه المدينة .

- يا سيدي هذه هي النّهاية .

- كلاّ لا اعتقد .

- لكنّه السّور أمامك .

الحكـايـة قديمـة جدّاً . يفصله عنهـا سور من الـزمن والعزلة . كانت المدينة تمتدّ بلا سور، وتلتحمُ بالرّمال والغابة،

وفي ذلك تاويلات مختلفة . الرياح تحمل السموم والرمال الى الـدّاخـل، فقـام السـور . لا تقتنـع أطراف بالتعليل السابق ويـرون أنّ اللصـوص كانوا يغيرون من مناطق خارجيّة على أطـراف المـدينـة، فلجأ المسؤولـون الى بنـاء السّور، ويقول المـوالون انّ السور بني ليحافظ على تراث المدينة من التسرّب الى الخارج!

وبقي النّهر وحده يمرّ تحت السّور قادماً من الجبل!

حين خرج يحمـل أمـر النفي ، شغلتـه حكاية المجهول خلف الجبل، فنسي النّهر ونسي العودة . ألهته حكاية الصوّت المجهـول . المهـاجرون طبقاً لأوامر غير مؤقّتة يسمعون صوتاً غريبـاً . يتّجهـون نحـوه . كلّ واحـد يصـل القّمـة لا يعـود . تماسك أعصابه طويلاً، وصبر على نداء المجهول من الجبل . لكنّ صاحب الصـوت الآخـر لم يصـبر . غوى الكثـيرين وصعب عليه هو، فقرر ان يقدم نحوه .

- هذا أنا يا سيّدي فلماذا تتجاهلني؟

يقـول الراوي ظلّ يدور، ويدور، فالسورعال، وهو لا بدّ ان يدخل المدينة، فلن يكون مكان مولده كالجنّة اذا خرج منها لا يعود اليها إلا بعد الموت . ظلّ يدور، ويلفّ، ثمّ انتبه الى نبـاح . كان الصـوت قادمـاً من خارج السور راح يحلم اذ

رأى كلباً من بعيد، فهو منذ الطفولة يخاف من الكلاب. كان عمره ثلاث سنوات عندما صادق كلب البيت. أحياناً يراه نائماً في الضحى فيقفز عليه، وفي يوم ما كما يتذكر، ولا يتذكره الراوي، صاح على الكلب. مسك حجراً صغيراً، لكنّ الكلب لم يستفق. تيقّن من موته، وفي يوم آخر، وهذا ما يذكره الراوي، صحب والده كلباً آخر ظنّ أنّه يصبح صديقاً له. اقترب منه وكان الوقت ضحى. قفز على بطنه، انزعج الكلب، وغرز انيابه في جسده. صرخ من الألم.. غضب والده، والعدّة على الراوي؛ وبكت أمّه. في هذه المرّة كما تذكر الروايات الأخرى، لم يخف من الكلب. ساوره باديء الأمر قلق، ثمّ تبع الحيوان. لابدّ أن يكون هناك نفق صغير يتسلل منه. عندئذ تصمت الروايات حيث تدلل من الحكاية على ذكاء لا يقف عند حاجز.

أمامك سور عال فوقه زجاج، وشرك وأشواك، ولا تسمع نباحاً، وانت تبصر نهراً عريضاً يتسلل أسفل السور. حسنٌ جدّاً ما يقوله الرواة.

- يا سيّدي انّك تكتشف أشياء جميلة.

- ربّما، وربّما الاشياء هي التي تكشف عن نفسها.

أنت مقيّد بالمياه، فماذا عليك لو هاجرت هجرة

مضادة؟ في المدرسة كنت تقرأ انّ البحر أصل الحياة. الكتب المقدّسة أمامك. كان روح الله يرف على البحر، وفي البدء ظلام... من الماء كلّ شيء حي، وربّما يرغمك المدّرس على حفظ نصّ قديم يرى أنّ الحياة جاءت من المياه وانّ الزواحف هي أسلافنا القدامى. وقتها تهمس في اذن جليسك:

- هل يقبل المدرس ان نطلق عليه ابن السلحفاة؟

- يا سيّدي لعلّك تهذي.

- لعلّ الزّمن هو الذي يهذي.

المعلم يطلب منكم حفظ النصوص، وأنت لا تدري أنّك ستكون إعلاناً يحفظه الناس: رجل مطلوب للعدالة انتبهوا أيّها السّادة لخطورته. مجرم محترف. يحمل أسماء مختلفة، ويغيّر شكله باستمرار، لذلك نأسف ان ندرج أوصافه في هذا الاعلان، لكّن أحدكم اذا اشتبه في أيّ واحد، فليسارع الى اخبار السلطة، فقد يكون هو هو!

خارج السور قبل الاعلان، تهاجر هجرة مضادة، فتتبع النّهر الى المنبع. تمشي طويلاً. تبصر وجهك في الماء فتنمو لك زعانف. هذا هو الرجل الذي صار سمكة!

يتقدّم منه الرجّل النحيف الطويل. يتمعّن في وجهه

الشاحب، وحين يطول الصمت يستدير عنه باشمئزاز:

- يا سيّدي هل تصرّح قبل ان تهاجر!

- لا شيء فالهجرة الثانية حلّت قبل الأولى.

ينسحب الرجل النحيف، كأنّه لا يرجع ثانية، ويمتدّ به البصر الى مدى مترام. يبصر عجوزاً تعبر المنحدر باتجاه الوادي، فتبدو له صورة والدته والجارة والمدينة التي يحيطها سور ونهر.

الصخر، والرمل، والاشجار تعرف الرجل الذي صار سمكة أكثر من كلّ الأشياء، ولأنّ الطبيعة تعامل الحيّ والجامد بالتساوي، حيث هي أمّ الجميع، كما تقول الروايات، وهذا يفهمه قبل ان يرى وجهه في الماء، تبدأ الزعانف بالظهور، فتضمر العضلات والسّيقان. تتحوّل الأرجل الى زعنفة كبيرة، والأنف الى خياشم، ويمرأى من الصخر والرمل والأشجار، يدلف بهدوء الى النّهر، ليتحرّر من كلّ شيء.

الهجرة الأولى

هكذا تقول الأسطورة، وهو لا يقرّ أساساً بما يقال مادام قادراً على التكيّف متى شاء. المكان بالنسبة اليه شيء عرضيّ، أمّا الوقت فيمثّل طموحاً استثنائياً. اذا كان يستطيع التغيّر الى شيء آخر فهذا ليس اسطورة، والاعلانات تقول: حذار من الماء. قديماً قالوا: عرائس البحر تجذب من الضفاف، والاسماك تأكل المواضع الرقيقة من جسم الغريق، فأوّل ما تبدأ بالعينين، فينتفخ الجسد، ويطفو على الماء، ويقول الرواة في صحيح أخبارهم أنّ رجلاً ما تحوّل الى سمكة.

- يا سيّدي كيف تشعر الآن؟

- أهذا أنت؟

الشّخص يسمّونه حوريّة البحر، له جسد انسان وذيل سمكة، ثمّ تقف الرواية عند هذا الحدّ، فقد ضاع معظمها بمرّ الزّمن، ولا يمكن لأحد ان يتخيّل النّهاية، وربّما فشل المزوّرون أو غفل عنها المهتمّون بسرد الأخبار، ونقل التاريخ، فلم يوضّحوا نهايتها: أكانت سعيدة أم مأساة؟

- سيدي ماذا تتوقّع؟

- اتركني ياهذا أتمتّع بحياتي تحت الماء.

أنت الآن تسبح. صوتٌ يلاحقك يا سيدي، لا تشعر بالتعب أكنت مع التيار وعكسه، ولكنّك تذكر أمّك، وبنت الجيران، هو كلّ ما بقي لك من حياتك السّابقة.

كان يحاول ان يكتب الشعر، إحساس الحّ عليه بعد تبادل النظرات والابتسامة، كتب مقطوعة بقي منها شذرات عالقة بذهنه:

نقيق الضفادع في الليل والنهار والليل يضفي على الاصوات مسحة جمال.

الزهور تعيش في كلّ الفصول، والرّبيع يمنحها حرّيّة النشوء.

عيناك تستلهمان السّنة لكنّ الخريف يطبع عليهما أريج الكآبة.

حين وقف يقرأ شعره ساعة الانشاء قال له المعلّم: أهذا شعر أم شعير؟. ضحك الطلاّب منه. كنت تشعر بأنّك أعظم شاعر على وجه الأرض. لم تكن تدري أنّك تتحوّل الى سمكة يوما ما... وربّما تحوّلت الى سمكة يوم بدأت تكتب.

يسير التيّار هادئاً وعنيفاً. السمكة لا تعرف حجمها.

ترى أصنافاً من الحيوانات مختلفة الحجوم، ومجموعات، كلّ منها يلحق قائده!

المدرسة تهاجر اليه في الماء. المعلم، والكتب، والطلاّب. يقرأ المنهج: كلّ مجموعة لها قائد. البشر، والحيوان، والحشرات، والسمك! قوّاد البشر يتغيّرون باستمرار، سؤال يخطر في ذهنه لا يجيب عنه المنهج المقرر، ويتجاهله المعلم، كنتُ أحبّ الماضي، أحبّ الحاضر، لا أحبّ الآن من مضى، وانت في الماء قائد تبحث عن مجموعة اسماك تتصدرها، وقد تتخلّى عن فكرتك مؤقتاً، فتبحثُ عن قائد تنضمّ الى مجموعته.

انت محكوم يا هذا بصفتك انساناً تخلّيت عن جنسك.

أنت عدوّ البشر. ليس هناك من إهانة لابناء قومك أكبر من ان تتحوّل الى جنس مختلف. تراك الاسماك غريباً، والبشر أعداء الخيانة، وأعداء السمك. انّك تهذي القاعدة تقول: الماء أصل كلّ شيء، اذن كلّنا أسماك، وكلّنا لنا ذيول!

- يا سيّدي أنا أرافقك منذ سنوات. أرافقك منذ يوم ولادتك، لكنّي لحدّ الآن لا أعرف ما تبغيه.

سمكة كبيرة لها وجه مشوّه، وخياشيم محبّبة تثير الغثيان، تتطلّع اليه، يبدو أنّ حجمها أكبر منه. تنطلق نحوه

بغضب، وشبق، يرى للماء سورة، فيحجب الطين عينيه.

ويقول الرواة إنّه كان مدللاً بين أقرانه، لا ينافسه في مظهره أحد، ولا يحاول أيّ فرد كبيراً كان أم صغيراً ان يعتدي عليه في المدرسة والشارع، فوالده معروف لدى النّاس، وله باع في العراك وهيبة لدى السلطة، وكان منظره هو ايضاً يوحي بالاحترام والهيبة. يشتري له والده بداية كلّ عام بدلة جديدة، فيمشي كالطاووس متباهياً، ويتخيّل نفسه في أشكال مختلفة. يقلّد الكبار، ويحلّ في كلّ من أحبّه. كان يتذكّر ذلك اليوم الذي خاب فيه ظنّه ببعض الأشياء. سمع من معلّم العلوم انّ الحيوانات لا تتكلّم، بينما تقول عجائز المدينة إنّها تتكلّم كالبشر. تخيّل عالماً يملؤه الصمّت، وفي البيت الواسع دجاجات وديك يصيح فجر كلّ يوم، وحين يبصر دجاجة تقرّب منقارها من رأس الأخرى، هذا يعني انّ ضيفاً يحلّ عليهم غداً، فالطيور تعرف المستقبل أفضل من الانسان.

والشيء الذي ورثه عن والدته هو الحزن. والده يبتسم دائماً ويمازح. يحبّ السّفر والنكتة والمجاملات، والغريب أنّه نقيض والدته تماماً. كانت ترتدي السواد طول حياتها حزناً على أحبّة فقدتهم. لا تتكلّم إلاّ قليلاً، وترى فيه الطموح

الذي يجسّد مستقبلاً غامضاً.

سكتت ذات صباح كشهرزاد عن الكلام المباح. انتظرت منتصف النهار حتى تنجلي غشاوة الحلم. يا ولدي أحلامي لا تخيب. رأيتك في المنام تندفع الى النّهر. أصرخ فيك، وانت تتجاهل صوتي، فتسبح مع التيّار بعيداً بعيداً. العرّافة تؤوّل الحلم كعادتها، بأنّه خير. سيصيب ابنك خيراً لا يستفيد منه مادام لم يشرب من الماء.

ـ هل تتذكّر كيف خلقت؟

ـ هلاّ تحل عنّي قليلاً يا سيّدي!

يصمت الصّوت الآخر، ويقول أحد الرواة المعاصرين للهجرة الأولى انّ والدته لم تكن تحبل. ذهبت الى الاطبّاء. زارت الاضرحة، ونذرت النذور. بكت كثيراً، وأخيراً حلّ الفرج. هناكَ شيخ عجوز لا يقرّ له قرار، تجده في النهار يلفّ الشارع، ولا تعرف أين مقرّه ليلاً. شيخ بهيّ الطّلعة يحرّك البحر بعصاه، وينيم الرياح اذا أزعجته. زار البيت أحد الأيّام. والدته تدعو، ووالده الذي يبتسم ويستهزيء يصمت، ويظلّ يفكّر، ودون ان يعرض أحد على الشيخ أيّ سؤال طلب كأس ماء فقط!

تذكّر. أنت الآن في الماء. منه تتنفّس وفيه

تعيش. هكذا يلاحقه الصّوت الظلّ، في حين يظلّ يحرّك ذيله محدّقاً في سمكة كبيرة تقترب منه.

بصق الوليّ في كأس الماء فتكوّرت فقاعات تثير الغثيان، ثمّ أمر والدك، ووالدتك ان يتقاسماه. خشي الرجل العابث من الرفض، وكرعت أمّك الكأس على مضض. عندئذ ابتسم الوليّ وهزّ رأسه: ماء. ماء. ونطق أطول عبارة في حياته: بعد كأس الماء ترزقان بمولود أكون انا منقذه وقت الشدّة، من الماء يخرج واليه يعود.. وانصرف الرجل، ولم تعد تراه، والصّوت الآخر الظلّ يسأل:

- هذا يعني أنّك لست الآن في مأزق إذ تتذكّر كيف خلقت!!

أمّا آخر أخباره فينقلها آخر الرواة غير المعاصرين له، وتبدأ الحكاية بالآتي: هو لم يكن يفارق الماضي، ويصمت دائماً. يعجب من صوت يلاحقه في الماء. تغمره الدهشة كمن يستفيق من حلم لذيذ. كيف يرافقه الصوت وهو في النّهر؟ وهل تحوّل وحده أو الأشياء كلّها الى أصلها الأوّل؟ والمخلوق الأكبر حجماً منه يحاول ان يهجم عليه، فيبصر على بعد امتار وجه السمكة الغاضب.

وترجع الحكاية الى رواة سبقوا عصره: تحدث سورة في الماء، فينزلق الى الامام. لا يحسّ بالخوف، ويجد رغبة في

الهرب، فالخوف زال تماماً منذ ان تجرّد من صورته الثانية، وبقي إحساسه بالحياة يدفعه للعوم السّريع. خيّل اليه انّ السمكة تفتح فمها، وتندفع نحوه. تريد بلا شكّ ان تبتلعه. لا يندم على تحوّله لكنّه يلتذّ بالاختفاء، فيلفّ مع التيّار، وينطّ، ويدلف أخيراً وراء صخرة لا تسع إلّا لحجمه. يبقى ذيله منتصبا. أظلّ مترّبصاً لحظة أم ساعةً لا يدري. الاحساس بالزمان يتلاشى كالخوف.

كان يخاف من المياه. والدته ترفض ان يذهب الى النّهر ويتعلّم السباحة، وهو الآن يقتحم المياه بمفرده ومعه الصّوت الآخر الذي يرافقه قبل ولادته.

- يا سيدي كنت لا تجيد السباحة.

- انت تهذي ولا تحول بيني وبين الخطر!

ذاكرته اقترنت بقصص عن اشخاص ابتلعهم الماء، وآخرين صادقوا رجالاً أسماكاً نصفهم بشر ونصفهم سمك.. انّهم يجمعون بين التراب والماء. ليسوا كالكلب الذي عضّه خليطين من مادة واحدة. الشباك تقذف في البحر. أحد الايام رجع الصيّاد خائباً، لعن المياه ولؤمها، ويوم أمس، عندما كنت تعوم، والاخبار تطفو على السطح ولا تدخل المياه، اصطاد سمكاً كثيراً. كنت من بين الاسماك في

الشبكة. سعيدة هي السمكة صغيرة الحجم اذ تعود الى النهر ثانية، بانتظار ان تصبح كبيرة. خياشمك تهبط وتصعد. ترفّ وتموت. بعد ساعة يقلّبونك على النّار، الزيت يتغلغل في عظامك، والنار تسلخ جلدك، ثمّ تشتمّ الكلاب والقطط ريحك، لكنّك لا تواجه المصير. يراك الصيّاد سمكة غريبة، تختلف عن كلّ الاسماك، برأسك، وذيلك وحجمك، فيفكّر ان يربح جائزة على حسابك. الرواة لا يعلمون عن أخبارك داخل الماء، هنا فقط، ينسجون حولك قصصاً غريبة، فالبرّ أصغر من المياه، وأكثر منها قدرة على استيعاب الاخبار. الحكاية لا تعجبك قطعاً. الصيّاد يصحبك الى السلطان. يا صاحب الجلالة. أحبّ ان اهديك سمكة غريبة اصطدتها اليوم. أنت حي داخل زجاجة شفّافة. تبصرُ قصراً وخدماً، وعيوناً تتطلّع اليك. يفكّر الصيّاد بجائزة ثمينة. يهزّ السلطان رأسه، ويقول فعلاً انّها سمكة جميلة، لكنّها ستموت إذا بقيت وحدها. عليك أيّها الصيّاد ان تحضر انثى تشبهها كي يتكاثر هذا النّوع الفريد. سنقدم لك هديّة ثمينة. مجدافًا من الذّهب، وان لم تفعل، حكمنا عليك بالموت. يخرج الصيّاد حزيناً، وينقلونك إلى حوض زجاجي كبير!

أنت معتقل في زجاجة. السلطان ينظر اليك بشماته،

والخدم يرمون لك الأكل يوميّاً، طعام لا تحلم به تعافه نفسك، والعيون تتطلّع اليك. ليست المصادفة وحدها التي أنقذتك، ويكون الحلّ والرّبط بيد النّساء. زوجة السلطان الصغرى تغار عليه منك. تخشى ان ينصرف عنها بالتطلّع اليك، فتدبّر مكيدة تعيدك الى النّهر. تدّعي انّ لصوصاً سرقوا الحوض الزجاجيّ، ولا تدري بعد ذلك ماذا حدث، ومن هو الحارس تعسُ الحظّ الذي طار رأسه بسببك.

وفي يوم غير متوقّع، ذلك ما نسي الرّواة تدوينه، واعتمد على الرواية الشفويّة للعجائز، أحسّ الصياد بثقل في الشّبكة. في البدء ظنّ بها سمكة كبيرة. انتبه الى صوت بكاء، تبيّن بالداخل فوجد انساناً نصفه الاسفل سمكة ونصفه الأعلى انسان. أصبحت المخلوقات المزدوجة أسيرة بيد الآدمي. الاعلانات التالية حملت زوائد على شخصيّته المتحوّلة، وغفلت أموراً حقيقيّة. لم يقتنع أساساً بما ورد في معظم الحكايات التي نُسبت أليه، وعندما ضايقه الرجل الآخر (الصوّت الآخر) أوجز ما كان من حقائق داخل الماء...

الصيّاد أشفق على الرجل السمكة. وجدها فرصة مناسبة للهرب من السلطان. أصبحا صديقين حميمين، ودعا الرجل السمكة صاحبه الى عمق البحر. قدّم له سائلاً طلى

به جسده، ستطاع ان يلج عالم البحر الذي غادره سريعاً لا لأنّ الـزيـت انـتـهى بل أخطأ في حقّ أهـل البحـر. رآهم يضحكون حول ميت. تلك عادة لم يألفها على البرّ، فطرده أهـل البحـر الى السـاحـل ثانيـة، وكـان السلطان بانتظاره، والـرجـل الآخـر يقـول: يا سيّـدي أنت تتربّص والخطر زال تماماً، فهل تخرج الآن؟

بعـد لحظـات يخرج دون تردّد، يلفّ ويـدور، ويشعـر بخفّـة ذيـل يحركّـه الى الأمام. مصاعبُ على بعد خطوات، وعليه ان يحسب حساب الزمن الآتي، وإلاّ فقد يضيع في فم مفتوح أو يسقط دون ان يدري في شبكة ينصبها أحد الآدميين وسط النّهر.

والاعـلان التـالي في روايـة شاذّة يقرأ البدء «فصلٌ عن آخر أخباره، وهو يحاول الخروج من بعض مكامنه»:

التيّار يبدو هادئاً وينحسر المدّ في الصيّف.

كان يحسّ بنشوة غامرة!

سيقصد احدى فصائل الاسماك.

يحركّـه الـذيـل تارة، وتـارة يقف يستطلع النّهـر، ويتحاشى شباك الآدميين.

لا يريد ان يكون كالرجل السمكة فريسة لرحمة

الانسان.

لرحمة أصله الثاني.

ويـرى نفسـه، وقـد اختفى الصـوت الآخر، أو تظاهر بالاختفاء، وحيداً في هدوء التيّار.

وهو لا يعرف النّهر منذ الهجرة الاولى.

يفكّر ان يلجأ لأيّة مجموعة صغيرة أو كبيرة.

فيحرّكه الذيل باتجاه المجاميع.

أسماك صغيرة تسبح عكس التيّار، أمّا هو فيقصد اتّجاه انسياب المياه.

يحاول ان يعيد الزمان لماض قادم وآخر قادم ماض

وفي المرّة الأخيرة يفشل.

يراود الاسماك عن نفسها وتراوده بالخوف.

تتكوّر مجتمعه أمامه، وتفتح أفواهها تنذر بالرعب.

يظنّ انّ الصوّت الآخر اختفى

ولكنّه يعود بالرغم من قسوة مجموعة صغيرة.

يا سيّدي لا تحاول اللجوء...

اوه. انـك تهذي، وكنت أظنّـك اختفيت، وتدخل في زوايا ليست بحجمك.

مجموعة الاسماك تهاجمه.

تنفخ في وجهه فتمتلىء عيناه بالطين.
يودّ لو يعود الى مدى أبعد من الاشياء المعتادة.
أنت لا تشبهنا. أنت غريب.
ويقصد السلاحف.
يظنّ ان قبحها يكون سببا لقبوله.
وبعد قليل يعرف من الصوت الآخر:
إنّه لا يملك ظهراً قاسياً
ويحرّكه الذيل بعيداً
وليسَ في النّهر تماسيح
وليس في النّهر حيتان
هل يقصد البحر، والبحر أبعد من النّهر ومن سور المدينة؟
الصوت الآخر تلاشى ثانية
ربّما كان تلاشى
وفي النّهر شباك ينطّ من أعلاها.
كان يظنّ أنّ المياه آمنة، تساعده على المسير، فيزول عنه الخوف.
يكتشف أنّ كلّ أصل قد يكون كاذباً... فهناك شباك الآدميين التي ينطّ أسفلها أو أعلاها ليعبر خطوة أخرى.

وهناك الاسماك المتوحّشة التي تلاحقه، فيهرب منها خلف نباتات كثيفة أو صخرة، ويرجع للرواة ثانية، فينتهي فصل آخر عن أخباره بعد ان يخرج من مكمنه!
يشعر أنّه عبر السور، فلا حاجة بعد هذا الى الزعانف والذيل. يأوي الى بقعة ضحلة، ويتخلّص من سورة عنيفة، ويرجع للرواة للمرّة الثالثة. يخضع للأقاويل والزيادات، غير أنّه يتخلص من ذيله وزعانفه، ويكاد ينجح...

يبصر وجوهاً مختلفة الأشكال تدخل البيت وتخرج.
يزدحم الناس على الباب، وتعلّق صور والده على الجدران في الشوارع. المدينة تنقلب على نفسها. تريد ان تنتخب واحداً تجعله كبيراً. والدته تخرج عن هدوئها وتتحرّك في البيت بلهفة. تكاد تنسى حزنها:
- يا ولدي الناس يشيرون الى والدك!
- ما الذي يحدث يا أمّي؟
تبتسم والدته، وتضمّه الى صدرها:
- سيكون كبير النّاس وأنت وارثه.
يا ولدي أنا اليوم انتخب كبير البلد. ستحمل هذه الصفّة من بعدي، فتبقى في عائلتنا طويلاً. ويسمعُ همهمات في الشارع تتهم والده بأنّه أصبح رجل حكومة. تدخل عليهم

زوجة الجار تطلق زغرودة. تزور النساء والدته. وكلّ يوم يأتي عددٌ من الرجال يهنّؤون الوالد. الحياة تنقلب بين عشيّة وضحاها. كلّ يوم يحدث تغيير مفاجىء. والدته التي لا تتكلم تصبح محدّثة بارعة. تجلس في باحة البيت تحيطها النساء. تتحدّث عن أمور لا يفقه منها الا القليل. يكوّن له شخصيّة تجمع بين أمّه وأبيه. يجرّب طرقاً مختلفة. يلعب مع ابن الجيران لعبة الاختفاء مثلما يفعل الآن، كأنّه لا يدري يسدد له لكمة قويّة، فيسقط الولد على الأرض، أمّا أم الطفل فتدخل بيتهم، تشكو لكبيرة النساء، وهي تتذلل، فترضي المرأة بقليل من الهدايا، ولعبة تقدّمها للطفل.

آخر مشاكسة يرويها عن نفسه، ولا يعرفها الآخرون، فتصير خبراً منسيّاً تجهله الاعلانات: إنّي أصعد الى السّطح. كان ذلك عصراً، والحرّ ما يزال في أوجه. أصحب معي مصيدة الفئران، وانسى الحرّ. والدي غائب عن البيت، ووالدتي مشغولة باعداد العشاء. العادة الجارية هذه الأيّام ان تحضر امرأة من الحيّ تساعد أمّي. حدث الامر بعد أن أصبح أبي كبيراً، وامتلأ البيت بالضيوف، ومن حسن حظّي انّها صارت ثرثارة يشغلها العمل والحديث، عندئذ اغتنمها فرصةً وانطلق الى السطح. أضع في مصيدة الفئران

قليلاً من الشعير ـ اختبيء خلف برميل النفط، وأظلّ أنتظر، وأنتظر.

ينقطع حديثه عن نفسه، ويتدخّل الرجل الآخر الذي يرافقه ليكمل:

يظلّ ينتظر. وينتظر، كما فعل قبل لحظات مع السمكة الأكبر حجماً منه. وقفت حمامة على الستارة الحجريّة، ثمّ رفرفت، وطارت تدور على الحاجز الخشبيّ، وحطت على السطح. ظلّ قلبه يخفق. اقتربت الحمامة، ونقرت الحبّ. انقلبت المصيدة على ساقيها. بدأت ترفّ وتضرب الارض بمنقارها!

يرمي بجثّة الحمامة الى صديقه الكلب الطيب الذي لا يعضه حين يقفز على بطنه، وهو نائم، أمّا الكلب الشرس فكان نصف كلب ونصف ذئب، الكلبة اذا شبقت ورغب أصحابها في كلب شرس تركوها مربوطة في البرّ ـ ولم يكن السور مبنيا بعد ـ فيجيء ذئب... والكلب الجديد يسمّى ابن ذئب. احضر والده سلاحه وسدّد رصاصة الى الكلب. بين العينين بالضبط وقعت الرصاصة. تنفّس بارتياح وخرج فجأةً من مكمنه!

يعود عمله الى الشارع فيتكلم بهدوء مع الآخرين.

يقول صبّي : فقدت اليوم حمامه، ويقول آخر: لعلّها حطّت على مكان ثان، لكنّ أكبرهم يستدرك : الحمام لا يضيّع موطنه، قد يأسره حمام الى مكان مجهول، ويسأل هو بخبث : هل لكم أن تعلّموني كيف أربي الحمام؟

يصدّق الصبيان براءته، ويثرثرون معه بحديث ودّي، وبمرور الزمن ينقص الحمام، ويخفي (هو) ابتسامة ماكرة يستعيدها في زمان ما تحت الماء.

الى هنا وتنقطع أخباره الخاصّة المتداخلة في الرحلتين الأولى والثانية التي فات الرواة نقلها، وفي آخر الهجرة الثانية نصّ صغير :

ويخرج من مكمنه باتجاه الساحل.

لقد عام مسافة تكفي لأن يتقيّن من اجتيازه السور عبر الماء.

فيتجرّد كلّياً عن زعانفه.

وببطء شديد يخرج رأسه الى الهواء.

ثمّ يرتمي متعباً على السّاحل.

فصل عن حياته يرويه الصيّادون

جلس الصيّادون في المقهى القريب من السّاحل. كانت أحاديثهم متضاربة بخصوصه، وكانت العجائز تعتمد على حكاياتهم أكثر من الرواة. أعتقد أنّ هناك شيئاً غريباً في النّهر، بهذه العبارة بدأ شيخ البحر حديثه. هو أكبرهم سنّاً، وأكثرهم قدرة على التحكّم في الامواج، وقال صيّاد قصير القامة، ربّما انّ الدولة استوردت سمكاً أجنبيّاً رمته في النّهر ليلتهم الاعشاب الضارّة، ويؤكّد صيّاد فقد اصبعه الابهام في الماء منذ سنين على انّ الشيء الغريب سمكة وليس سمكة، لمحها تنطّ على سطح الماء مرّة مجتازة الشبكة. يقسم ايماناً أنّه لم يكن يصدّق عينيه، ويؤيّده ثالث ظلّ صامتاً الى هذه اللحظة، المخلوق له عينا انسان، وذيل سمكة، وعلى رأسه قليل من الشعّر، أمّا هو في الحقيقة فكان يصغي الى أحاديثهم دون ان يتدخّل. كلّ ما فعله أنّه لفّ حول السور بحثاً عن ثغرة يدخل منها، وحين وجد النّهر يمرّ من تحت جدار مغلق قذف نفسه في الماء، وغاص أسفل السطّح. شعر بثقل تحت قدميه أو ذنبه باتفاق الروايات، حنى رأسه بمحاذاة الشبكة، مال الى جانب، واستند باندفاع المياه، استقبل الهواء بزعانفه، ونطّ الى الأعلى، فانقلب يخلّص ذيله، لمح

وهو ينطّ غريباً على الجرف التقط انفاسه وغاص أسفل السطح، كان منهكاً الى درجة، ولو وقع في الشبكة لعدّ متسللاً فاشلاً، وما كان يستطيع ان يفهم شكله في الماء اذ عدّ نفسه في محاولة العبور سمكة تهرب مع التيّار من عدوّ.

غير انّ حركته تحت السطح كانت توحي لمن يقف يترّبص بالسمك على الساحل انْ يظنّ سمكة كبيرة تثير الماء بحركتها. لابدّ انّ شخصاً أبصره ينطّ الى أعلى فينشر الخبر، ومن خلال الأحاديث يتبيّن انّ الاسطورة تنتقل من الصيادين أساساً، فقد شعر بتعب في نهاية المطاف، فبعد ان اجتاز السور مع التيّار ارتمى على الجرف متعباً، وقصد حانة الصيّادين.

كان يجلس في ركن منزو، وينصت باهتمام الى ما يقوله هؤلاء المجتمعون عنه، متحاشياً التدخّل في أيّ موضوع. قد لا يصدّقونه، وليس من صالحه ان يعلن عن هويّته. الذي يندهش له انّ دخوله لم يثر استغراب الحاضرين، وها هو يجلس وحده أمام منضدة في زاوية، وينصت باهتمام.

- يا سيّدي أتدخل المدينة؟

- عليك اللعنة دعني أنصتُ لما يقوله عنيّ أهل المياه!

كان يتصوّر كيف يدخل المدينة، منذ عدة قرون وهو في

منفاه يحلم، ويحلم كيف يدخل مكاناً نفي باختياره عنه. قديماً كان النّاس يزحفون جماعات من مناطق الجفاف الى أراضي الخصب، ومن الجليد الى بقع الشمس الاكثر دفئاً، يتّخذون من الأرض الجديدة بلداً لهم، ولأنّهم جماعات ينسون ماضيهم، ويتعلّقون بالحاضر. . . يبتسم لخيال يلوح أمامه!

- تُرى هل كان آدم يحنّ الى الجنّة بعد نفيه؟

- يا سيدي آدم لم ينف وحده. كانت معه حوّاء.

- الا تتركني لحظة؟

- لن أتركك ما دمت وحدك.

- لست وحدي فهذا المقهى يعجّ بالناس!

- أقسم أنّك وحدك.

- قد يكون كلب الماء؟

- لا كلب الماء أصغر حجماً.

يستفزّه الصوت الآخر:

- سيدي انّهم يقولون عنك كلب.

- لست على استعداد فأخوض معهم حواراً جافّاً.

المدينة تستقبله استقبال الفاتح. على جانبي الطريق أعلام، ويُنشر في الانباء انّ البطل المنفيّ عاد منتصراً يصطفّ على الرصيف رجال ونساء يلوّحون له بالايدى، ويمرّ وسط

الطريق ممتطياً فرسه الابيض، ومتقلداً سيفه.

وفي لحظة الغيبوبة يقف كبير الصيادين أمام منضدة طويلة؛ يصمت الجميع بانتظار ما يقوله. يحرّك يده، وينطق الكلمات ببطء... اعتقد يا ساده، من خلال خبرتي في المياه، أنّ احدى حوريّات البحر ضلّت الطريق، فدخلت النّهر بالغلط، علينا ان ننصب الشباك لاصطيادها.

يرتاح الصيّادون للفكرة. يهمس كلّ واحد بإذن صاحبه، ثمّ يعود الهدوء ثانية. يسترسل كبيرهم:

إنّه لصاحب حظّ سعيد من تقع في شباكه، فهي حين تخرج الى البرّ تتحوّل الى تمثال ذهب.

يصمت الصيادون لحظة، ويسود المقهى جوّ هادىء لا يعكره إلّا صفير بخار اناء ساخن موضوع على النار. يقول احدهم:

لا شكّ في انّ احدنا سيصيدها، بالتأكيد، ومن حقّ صاحب الحظّ السعيد ان يحظى بالذهب وحده!

يتطلّع كلّ صيّاد بوجه الآخر، وترتسم على العيون علامات غضب. يرجع كبيرهم الى وقفته:

- ها هي المدينة تغلي بسببك وأنت حاضر فيها.

- لن اردّ عليك، وسأدع الصمّت يقتلك.

يصرّح شيخ الصيّادين: لا. كلّنا ينصب الشباك ويتعب، بالتأكيد، ستقع حوريّة البحر في شباك واحد منّا فقط إلّا انّ من حقّنا ان نقتسم قطعة الذّهب.

تعلو أصوات مؤيّدة، وأخرى ترفض. يتحوّل الحماس الى استفزاز، أخيراً يصمت الرواة عن حادث الشجار فلا المعاصرون ولا المتأخّرون يتحدّثون عن عراك خاضه رجال الماء، ولا يعرف صاحب السيرة نفسه سرّ التّجاهل، ولماذا قوبل العنف بالصمّت، ولم يظهر في الوسائل الاخباريّة.

كانت الاكفّ تتشابك والوجوه تدمى. السراويل تتمزّق، والذي بقي سالماً هو كبيرهم فقط. المؤيّدون، والمعارضون تحاشوا استفزازه، وأكثر الاعمال عنفاً هي تلك التي حدثت أمامه بالذات، وبحضور الصوت الآخر. لقد ارتفع كرسيّ في الهواء، وسقط على رأس الصيّاد. تبعثر أثاث المقهى، واستخدم المتشاجرون كلّ ما تقع عليه أيديهم!

وفي اعلان فرعي قرأنا بعد سنوات جملة مشوشّة: انّ مقهى الصيّادين بعيدة عن الاسطورة، بعيدة عن العنف، بحيث انّ أعمالهم كانت رتيبة، ولم يشهد النّهر حوادث عنيفة في صفوف عمال المياه، سوى حادثة واحدة: انّ صيّاداً كان يهيم حبّاً باحدى حوريات البحر، لا من أجل ان يصطادها،

فيغنم قطعة ذهب. بل كي يرجوها ان تصحبه معها الى البحر، وفي نهاية المطاف، ظلّ ينتظرها، كانت الليلة بداية شهر، طلع الهلال ساعة وغاب، فعمّ ظلام دامس. حاول الصيّاد ان يلحق بها، فالقى نفسه في التيار، وغاب الى ساعة اعداد المنشور، وكان على الراوي ان يضيف توقّعاته على شكل خبر حقيقيّ، أمّا ما سمعناه من اضافة فليست في الرواية المخطوطة. انّ الاخبار اعتمدت على رواية شفويّة متّفق عليها: يُقال انّ حوريّة البحر أشفقت عليه وتزوّجته، وكان ثمرة الزّواج جنساً غريباً لا يستطيع العودة الى البرّ، ويصعب عليه التكيّف في البحر.

عندئذ يهدأ الصيّادون، ويعودون الى صمتهم. يقف كبيرهم يعالج الأمور بحكمة: ايّها السادة، الآن، نؤجّل الصراع في هذه المسألة الى ان تقع حوريّة البحر في شباك أحدنا، ذلك الوقت نناقش المسألة!

يقاطع صيّاد مغمور، لم تعرف عنه روح المخاطرة، ولا واجهه يوماً موقف حرج:

- ما رأيكم ان نرسل التمثال الى السلطان؟

يكتم الصيّادون غضبهم، ويعقّب الرئيس بارتباك؛

- ومع ذلك فجميع المسائل تناقش بعد ان نعثر عليها.

يهزّ الصيّاد المغمور رأسه غير مقتنع، وفي نفسه يتأصّل العرض القديم. سيواجههم حين تقع حوريّة البحر في شبكته. ايّها السادة، إنّي أروم تقديمها هديّة الى السلطان، فمن منكم يعترض؟ ايّها السادة، مسألة النقود لا تهمّني، فالغنيّ والفقير يأكلان، لا أحد يموت جوعاً، لكني أرغب ان اكون مسؤولاً.

- يا سيدي قد يطلب السلطان منه ان يحضر ذكر الحوريّة.

- إنّه يمرّ بتجارب قاسية.

يتذكّر أنّه خرج عن صمته وحدّث الرجل الآخر. ينظر اليه بشماتة. يقتنع أنّه لا يستطيع معه صبرا، فصاحبه يكون أحياناً على حقّ.

يقتنع الصيّادون بالفكرة، ويتهيّأون للخروج، ينسلّون باتجاه النّهر، وهم يحلمون بالذّهب والمياه. يبقى في المقهى وحده.

- يا سيدي ما الذي تتوقّعه؟ هل يرحل الصيّاد المحظوظ مع حوريّة البحر او يغتنم قطعة ذهب؟

يصمت متجاهلاً السؤال. يبدأ صاحب المقهى بجمع الكراسي. يقترب من منضدته، يعلن بحركات ثقيلة عن نهاية الوقت. يسأله بفضول:

- قل لي متى يعود الصيّادون؟

يتجاهله تماماً. يستدير عنه باشمئزاز:

- الم أقل لك انّك وحدك الآن!

يتغيّر صمته الى ثورة عنيفة، ويعلن عن فشله في محاربة الصوت الآخر بالصمت، فيغادر المقهى باتجاه المدينة متخلصاً من حكايات الصيّادين. وشجارهم الذي عايشه بصمت، كما تخلّص من زعانفه قبل وقت غير قصير!

فصل عن نفيه

بقي يلفّ في شوارع المدينة يومين أو ثلاثة، فيرى وجوهاً مختلفة، ويضيع المكان منه. كلّ شيء متغيّر. المدينة لم تكن بشوارع واسعة، وأرصفة عريضة. يستجمع ذاكرته. يحافظ على هدوئه قليلاً. يظنّ انّ الدنيا ثابتة ورأسه يدور. فيهمّ ان يتذكّر!

في الشارع الضيق الذي يطلّ على الضيعة انتشر رجال مسلّحون، سدّوا منافذ الطريق. كان خطراً برأي الاخرين، عندما أراد ان يزج الحاضر بالمستقبل، ولا يُراعي امتداد الزمن. انّه التمرّد على النّاس والسّلطة، ويقول الرواة عن المعاصرين، عن أجيال مفقودة، عن المتعاطفين معه، عن الثقاة ما بعده، ومَنْ صحبه، يقولون: انّ مداهمة منزله حدثت في الليل كي لا يثير العمل ضجّة السكّان. طرقات خفيفة على الباب، تململ في فراشه. الباب يطرق ثانية طرقات عنيفة. هرول مسرعاً، فقابلته وجوه المسلّحين. شهر أحدهم سلاحه في ظهره وأمره ان يصعد معهم. امّه لاذت بالصمت وكفّت عن ثرثرتها، والده تجرّد من مزاحه، وفي عينيه

عتاب يذكّره بيوم قَرَصَ أذنه، وقال: أحبّ كلّ من يأتي، ولا تذكر الماضي، وبنت الجيران كانت نائمة!

لم يُقابل باحترام على أيّة حال. تناوشته الركلات والاهانات. قطب حاجبيه رجل عظيم الساعدين، عريض الكتفين:

- انت يا هذا، لماذا تثير الفوضى؟

- لم أكن أفعل شيئاً.

كلّ كلمة انكار تقابلها صفعة، حتّى تهاوى مرهقاً، ويقولون، والعهدة على الراوي، انّ الصوّت الآخر هرب في تلك اللحظة، وبقي هو وحده. الناس يتساءلون: اين ذهب؟ والدولة تعلن شجبها واستنكارها لخطفه. الجهات المسؤولة تنفي كلّ علاقة لها به. بعد فترة خيّروه بين النفي والموت. وقف الرجل الخشن عظيم الساعدين، وأمره ان يختار رقماً. أيّ رقم من اثنين فقط احدهما يحمل النفي والآخر الموت فاختار الرقم (١) ومن حسن حظه ان اختياره للنفي جاء مصادفة، وإلاّ لما بحث عن أصوله. لكنّه بقي في المنفى يتابع الاخبار.

لم تكن ابنة الجيران قد تزوّجت ساعة نفيه، حلم انّها تنتظره الى ان سمع بالخبر، وربّما كانت والدته على قيد

الحياة، امّا والده فقد تجرّد عن منصبه تماماً. كلّ الأثار تدلّ على ضياع الذين يعرفهم. لعلّه يحلم أو يمّر بكابوس ثقيل بين الصحّو والنّوم.

سمع من الرواة على أزمنة مختلفة انّ الدولة تغيّرت أكثر من مرّة. تتبّع كتب التاريخ، فتأكّد من الاخبار، وفي كلّ مرّة يأتي يجد السّور. لم تفكّر أيّة سلطة بهدمه، انّهم كانوا يعدونه، ومازالوا، جزءا من تراث المدينة، وخصوصيتها الجماليّة، لكنّ التاريخ لا يقتنع، وهو نفسه لا يقرّ بالتعاليل، وان أخذها بعض من الرواة على محمل اليقين.

يحسّ ان ثباته يتزعزع، فلا يكفي السّور والنّهر ان يثبتا وجوده القديم، ويبقى ملفّه محفوظاً. كلّ القادمين الجدد لا يبعثون في طلبه ليعود من منفاه كأنّهم اجتمعوا على عدائه حتّى تغيّرت المدينة تماماً.

ويحدّثنا هو نفسه عن تلك اللحظة معتمداً على انطباعاته الخارجيّة: انّه ظلّ يمشي، فيسمع يومياً كلمات غريبة وجملاً لا يفهمها. تأكّد أنّه دخل بالغلط مدينة غريبة يحتاج فيها الى ترجمان. أضرّ به الجوع فهو لا يملك نقوداً منذ ان رمى نفسه في النّهر، وعبر السور، ضاع يومين أو ثلاثة. أوقف بعض المارّة فلم يفهموه. كانوا يهزّون رؤوسهم،

ويتمتمون بكلام غريب، بينما لغة الشارع واشارات المرور، وعناوين المحلّات مكتوبة بلغته التي يتحدّث بها، ولولا هذا لاعتقد أنه دخل بالغلط، فوقف حائراً بين الاعلانات المفهومة، وغرابة الالسن!

وخطرت له فكرة . . . . زاد من تصميمه شعوره بالعطش والجوع. قرأ عبارة تقول: هنا دار استراحة، فقرر الدخول، لعلّه يجد مأوى مؤقتاً على الأقل!

يخطو على درجات واسعة. يدخل غرفة استقبال. منضدةٌ مستطيلة، جنبها رجل يبدو عليه النعاس، يرفع رأسه متثاقلاً، يتثاءب، ويمسح عينيه.

ـ هل أجد عندك أيّها السيد مكاناً يؤويني؟

يتطلّع الرجل اليه بريبة، وينطق عبارات غير مفهومة.

ـ ايّها السيد. . .

يقاطع الرجل حديثه بلهجته الغريبة.

يبدو أنّه دخل مكاناً يؤوي الغرباء فقط. قال بلهجة يائسة:

ـ أيّها السيد إنّي أسألك ان تجد لي مكاناً حتّى ارتّب اموري.

ظلّ الرجل يرطن. يأس من ان يتفاهم معه، فهبط الدرج العريض الى الشّارع ثانية.

لم يتغلّب على الجوع والتعب الا بتجرّده من الحياء. أصبحت الشحاذة لا تثير في نفسه معنى غير اخلاقي. مجلّ فخم خطّ على واجهته «مطعم»، كأنّه يحلم ليهرب من الخجل، ويرى في الحلم أصنافاً غريبة من الطعام كانت مجهولة قبل فترة النفي. العجيب انّ الرجل الآخر (الصوت الآخر) هرب منذ ساعة اتّهامه، وعاد ثانية يحرّضه على مدّ يده. لقد فارقه زمناً طويلاً، وهو الآن بأمسّ الحاجة اليه. من يدري لعلّه الصوّت الوحيد الذي يفهمه الآن!

افرض يا سيّدي أنّك هذه اللحظة تعيش في حلم. افرض الواقع حلماً، والاحلام واقعاً. افرض انّك تمدّ يدك، عندما تنام تنسى ما تخجل منه في الصحوّ، وحين تصحو تنسى ما حلمت به. يتردد فيعترف بخطأه، ثمّ يدخل من الممر الزجاجي. كنتُ أعاندك دائماً. هذه هي المرّة الأولى التي أطيعك فيها.

يقف أمام رجل بدين، قاسي القسمات، ضخم الشفتين.

ـ ما دمت تطلب بفمك فلا داعي لأن تمدّ يدك!

يصبح رجلاً آليّاً يحرّكه الرجل الآخر (الصوت الآخر)، بالرغم من هربه ساعة اتهامه، ويستدرك ذوو الحكمة،

فيعلّقون على الخبر، بأنّ صاحبه كان ذكيّاً جدّاً، فلو وجدوه معه ساعة القاء القبض عليه لاتهموه بتشكيل تكتّل الهدف منه بثّ الفوضى في صفوف الرأي العام، وتحريض المواطنين، والشروع بالتخريب، الى آخره من التّهم التي يتعرّض لها مشاهير ذلك العصر!

- يا سيّدي إنّي جائع!

الرجل البدين يستغرب من لهجته. يرطن بكلمات لا يفهمها. يقف حائراً، ويشكّ في سلامة عقله. كلّ العناوين مكتوبة بلغته، لكنّه يسمع اصواتاً غريبة في كلّ مكان.

إنّي اقلب المكان، فأسقط في الخيبة وأكاد أجنّ. فلو كانت العناوين مكتوبة بلغة غريبة، والناس لا يرطنون لقلت ذلك من باب التحضّر، وتشجيع السياحة، أعود أسأل: كيف أوفّق بين ما أراه واسمعه، والصوت الآخر كما يسميه الرواة يحثّني: يا سيدي تذكر المثل القديم بين الصدق والكذب اربعة أصابع!

- يا سيّدي إنّي جائع ومتعب، هل لك ان تساعدني، ومتى ما وجدت منزلاً غادرته قبل سنوات او التقيت بمعارفي أعدتُ اليك معروفك!

يتحدّث الرجل البدين بلغة غير مفهومة، يجرّب ان

يستفهم منه بحركات يديه، وملامح وجهه:

- يا سيّدي لستُ أجنبيّاً حتى تكلّمني بلغة لا افهمها.

يسحب الرجل البدين جرار المنضدة، يناوله قطعة نقود. ينصرف عنه الى زبون آخر. يخطو الى الشارع وهو يتطلّع في قطعة النقود. انّها ليست غريبة عنه. كان الناس يتداولونها في عصره. اذن لابدّ ان يكون هو مجنوناً أو يحلم.

- انت لا تحلم فالواقع حلم والحلم واقع وكلّ ما وقع سوء تفاهم.

لا يفهم الرجل الآخر كأنّه غريب عن زمنه غرابة مدينة رجع اليها، فيأخذه التعب. يأوي الى رصيف هادىء. يُسند عكسه على ركبته، ويروح يفكّر...

وقد حاول الرواة ان يضفوا عليه أبعاداً مأساويّة، فيذكرون أنّه بعد ان رأى العملة النقديّة كاد يجنّ حتّى التقى به أحد أصدقائه القدامى.

فصل عن حياته في المدينة وهامش

ـ الستَ صديقي القديم؟

قال الراوي ذلك ولم يصرّح باسمه، ولولا أنّه بكامل وعيه لتخيّل نفسه في مدينة أشباح حقيقيّة. اجتاحته دهشة. اصفرّ وجهه من الخوف، كاد يركض..

يدٌ على كتفه، وشخص بلا رأس يخاطبه:

ـ أتعرفني أنا صديقك القديم؟

كيف له ان يعرف انطباعات جسد من غير رأس. اختفى الرجل الآخر للمرّة الثانية، كنّا نعرفك قبل النّفي.

غير أنّ هناك فصلاً قصيراً يتداخل مع المتن الأصليّ يخصّ سيرته عثر عليه في وقت متأخّر. الفصل يرجع الى مئات السنين بعد وفاته لذلك لم يعتد به حسب القاعدة التي تستند الى الروايات المعاصرة له التي سبقت زمنه، عنوان الخبر «فصل من حياته في المدينة». المخطوطة مجهولة الراوي والناسخ. أوّلها مفقود، وتبدأ من المنتصف:

حين دخل المدينة وجد كلّ شيء مقلوباً. البيوت الصغيرة

ادّعت البلاغات أنّ جهة مجهولة اختطفتك، وكان الرواة والمعاصرون لا يعرفون الحقائق أكثر من المقرّبين اليك. يزول خوفه، وتبقى الدّهشة. لكنْ قل لي كيف أصبحت بلا رأس؟ يقول له صديقه الجثّة ستفهم فيما بعد. شيء أفضل من لا شيء، ان تجد شخصاً تخاطبه في بلد لا يعرفك به أحد، وان كان بلا رأس... مهما يكن فذلك أفضل.

يسيران في طريق تحدّده خطوات الجثّة. يدخلان بيتاً معتماً. يقتاده الى غرفة مجرّدة من النّوافذ.

ـ ستبقى هنا حتّى تعرف كلّ شيء. أنت تستعمل الطريقة القديمة في التعامل مع الاشياء، والآن عليك ان تنام فأنت

أصبحت كبيرة. الشوارع الضيّقة توسّعت، وكان لها ارصفة. كلّ الوجوه بدت غريبة له. المفاهيم معكوسة. عرف انّ فترة نفيه استمرت سنوات. المخطوطة تستقي اخبارها من الكتب الدينيّة متحاشية الأساطير، ولعلّ ذلك أدّى الى اهمالها، فقد كان يرى أنّ فترة نفيه أشبه بنوم طويل لكنّ الصوت الآخر بقي يرافقه.

ـ يا سيّدي أنت من أهل المدينة!

متعب.

تتركه الجثّة وحده. اذن هوليس معتوهاً، ولم يدخل بالغلط مدينة أخرى. هناك التباس بالتأكيد، يؤجّل مناقشة الموضوع لما بعد الغفوة. يتمدد على سرير واسع، وسرعان ما تنطبق جفونه. يحلم بماضٍ سحيق ينتشله من اللبس والوهم. إنّه يسير في مدينة نحاسيّة، الناس فيها تماثيل، كأنّها تجمّدت في لحظة، وبقيت على حالها تنتظر حدثاً يخرجها من السحر. يتطلّع في وجوه المارّة الواقفين، والجالسات في الحوانيت. الكلّ تماثيل لا تتحرّك، لا يعاني من جوع وبرد، فيسرق ما تقع عليه عيناه يصيح فيسمع صداه، وآخر المطاف يسير بلا

هذه المرّة عدّ الصمت إهانة. اندفع محتجّاً!

- لا أنا من هذه المدينة.

لمس كلّ شيء مقلوباً. الناس يضحكون في الحزن، ويبكون وقت الفرح. الكذب صدق، والصدق كذب. ولا يكون كصيّاد دخل البحر، واندهش من فرح أهله لوفاة، وكان فعله سبباً في طرده، وهو يتمنّى كملك قديم يلمس كلّ شيء فيصير ذهباً، فيندم، لماذا لا تكون

هدف، فيصل النّهر، يظهر الصوت الآخر (الرجل الآخر) يحرّضه: يا سيدي أتعرف مرض المدينة؟ أنا سأحكي لك. يفتح الرواة أمامه سيرة قديمة، ويذكرون أنّ ساحراً شريراً حوّل مجتمعاً بكامله الى تماثيل من حجر. السّر بقي محفوظاً قروناً طويلة، اذا ألقى رجل ما نفسه في نهرها متعمّداً، فانّ الحياة تدبّ في التماثيل. اذ ذاك يعرف النّاس أنّهم يعيشون الحاضر بماضٍ عمره عدّة قرون.

- أهذا أنت ثانية، لكنّي سألقي نفسي في الماء!

يقفز من الجرف باتجاه التيّار. يغوص. يشعر بالاختناق. يقاوم الغرق. تتقطّع أنفاسه، وتنقذه الصحوة

له عينان تحيلان الاشياء الى تناقض، فيندم ايضاً، ولا يتعب أهل الرواية الذين جاءوا يقتفون أخباره؟

جلس على الرصيف يراقب المارّة، ثمّ تجوّل في الشوارع. لم يعثر على بيتهم وبيت الجيران. حاول ان يتعرّف بالناس. إنّهم يتحدّثون لغته نفسها بوجه غريب. أين الذين عاصرهم؟ هل تبدّل المدن أماكنها؟.

من حلم متوحّش، من غير أن يمنح الرواة نهاية سعيدة.

يحسّ بالتعرق يبلل ثيابه. يبقى مضطجعاً لحظات يفكّر بالحلم، ثمّ يخرج الى الدهليز. يرى الجثّة (صديقه القديم) جالسة تتأمّل، لايستطع ان يستنتج نوع انفعالاتٍ يطبعها تصّرفه على الشخص الآخر. يسأله: أكنت تحلم؟

- قل لي هل تغيّرت المدينة أو جننت أنا؟

- لا هذا ولا ذاك، فأنت تجهل أو تتجاهل.

- لقد تغيّرتُ كثيراً يا صاحبي.

يعرف من حركة صاحبه أنّه يهزّ رأسه موافقاً، ويعقّب:

- المدينة أيضاً تغيرت من بعدك. هؤلاء الذين تراهم برؤوس

- يا سيّدي أنت من أهل الكهف.

يدخل في الزّحام. يلفّ بهدوء. يبحث عن أيّة مقهى يستظلّ فيها من الشمس، ويريح ساقيه من التعب.

- لكنّك لا تملك نقوداً.

- لن أطلب سوى الماء.

يجد في تجواله المتقابلات تحتلّ كلّ منها مكان الأخرى. يتقدّم

أجانب يعملون في البلد.

- اليس في البلد مواطنون برؤوس؟

- الأجانب والمسؤولون الكبار فقط.

- لكنّي لم أر شخصاً بلا رأس إلاّ أنت!

الذين بقوا قلّة. الكثيرون هاجروا، وقسمٌ ماتوا. الآخرون تجرّدوا من الرؤوس. اذن كان معها حقّ. لقد تزوّجت من غريب لتحتفظ برأسها!

يقطع عليه تأمّلاته (الصديق القديم):

- أراك ساهماً بماذا تفكّر؟

- قل لي متى صدر قرار التخلّي عن الرؤوس؟

وجه غريب يسأله ماذا يرغب؟ يطلب كأس ماء فقط. ولدت بكأس ماء، وكنت في النّهر لا تفكّر بالعطش. يعجب منه الوجه الغريب، وحين يهمّ بالانصراف يستوقفه غاضباً!

- هاتِ نقوداً؟

- لم أطلب سوى قدح ماء!

يصمت الوجه الغريب، ثمّ ينفجر:

- لم تكن تفكّر بهذا!
- كنت أظلمها حين سمعت أنّها تزوّجت من غريب.
- أترى... نحن بلا رؤوس لكننا نقرأ ما في الضمائر!
- لكنّك لم تقل لي متى صدر القرار؟
- كان ذلك بعد نفيك بفترة.

يتخيّل وجه صاحبه.. مستطيل، عينان ثاقبتان، حاجبان رقيقان، يضيق ما بينهما فوق الأنف، يتركه بعد الانطباع، ويخرج الى الشارع، فقد بدأ يفكّر بمغامرة جديدة!

بدءاً من ساعة خروجه يختلف الرواة في تتبّع سيرته،

من ايّ ماضٍ سحيق قدمت؟ انّك تجهل كلّ الأمور.
- الشيخ حصرني في كأس ماء ولم يطلب من أمّي نقوداً.
- يا سيدي لا تناقش. ما دام الماء أصل كلّ شيء كما تقول فليكن له ثمن!

تبين له الاشياء على حقيقتها حين يتجمّع حول الوجه الغريب وجوه غريبة: هذا متسلل من زمن ماضٍ، ونحن نخشى من التلوّث.

ويرسمون أبعاداً متناقضة لشخصيّته، أمّا صاحبه القديم (الجثّة)، فيروي عنه حكاية معقولة:

يقول: إنّه خرج من البيت مباشرة ونسي الباب مفتوحاً. كان يحثّ خطاه الى مقرّ المدينة الرّسمي. ظنّه المسؤولون أوّل الأمر ضيفاً. استقبلته شخصية بارزة. الرجل الرسمي صارم القسمات، عنيد، حادّ العبارات، يفتعل الابتسامة بوجه السيّاح والأجانب طبقاً لأوامر تشدّد على الدعاية السياحيّة.
- ايّها السيد الكريم...

بدأ الرجل الرسمي يتحدّث بلغة لايفهمها. الكلمات

يتأكّد افتضاح امره، فهو يتصرّف، ويتحدّث، بمفاهيم قديمة، قدم الزمن في المدينة. الحركات مقلوبة، والاشارات: اسكت، تكلّم. امش، قف، وأمور غريبة لا يستطيع ان يستوعبها قاموسه القديم، وتحتاج الى وقت طويل كي يعتاد عليها.

أخيراً، قالوا بصلف: يجب ان يتحجر، فهذا شخصٌ قادم من زمن سحيق، ومعتاد على مفاهيم مقلوبة، والأحرى بالسلطات المعنيّة

غريبة لم تعتد عليها أذناه!

- يا سيدي إنّي مواطن!

- مواطن، وأرى لك رأساً، والرؤوس يحملها المسؤولون والأجانب فقط!

- كنت منفيّاً يا سيّدي!

تتغيّر نبرة المسؤول الى لهجة حادّة:

- أنت تعدّ متمرّداً على الأوامر.

- يا سيّدي لم أكن أعرف.

يهدأ الرجل الرسميّ قليلاً، يحذّر:

- أمامك ثلاثة اختيارات: الهجرة، أوخلع رأسك، أوان

ان تعالج أمره بدقّة. لم يضربوه أو يعذبوه، فهم أبعد ما يكونون عن العنف - بعده هو عن فهمهم - كانوا يسمّونه تراثاً ملغيّاً. قدّموا له أوراقاً، وطلبوا منه ان يرسم خارطة المدينة التي كانت على عهده. احتجزوه في غرفة صغيرة، وقدّموا له طعاماً يشمئزّ منه.

يوماً عن يوم زاد احترامهم له، لكنّ الرغبة فيهم لمعرفة أسرار الماضي وطريقة تسلله، كانت تدفع المعنيين عن الأمر بلا شكّ الى

تكون مسؤولاً...

يطرق، يفكّر، ويواصل الرجل الرسمي:

- عليك في الحالة الأخيرة ان تنتظر موت أحد المسؤولين الكبار - أنا مثلاً - فتحلّ مكانه لكنّي لا اعتقد انّ انساناً شريفاً يبني طموحه على مأساة الآخرين!

في التنقيب على اثاره نعلم ان أصدقاءه غير المقرّبين حين استبطأوا عودته، وحملوا ارقاماً بدلاً من اسمائهم ارجعوا سرّ تمرّده على الدولة منذ أخافه شرطيّ في طفولته. اي انّ سبب المعارضة يرجع حسب اعتقادهم الى مرض نفسي مزمن، ففي السنّة الاولى كما مرّ بنا في السيرة الثانية خاف وهو

مثوله أمام المحقق. خلال أيّام معدودة طلبت السلطات المعنيّة من المسؤولين عن الأمن ان يكتشفوا طرق تسلله، ومع ذلك فالرؤوس الكبيرة قررت معاقبة المتهاونين لإهمالهم، وصدرت الصحف والاعلانات تقول: لا بأس ان يتسلل الماضي الى الحاضر. الناس على ثقة بأنّ الحاضر أقوى، فكيف لم يشعر بعمليّة التسلل. لكنّهم يفكّرون أبعد من هذا. لا يخافون من الماضي الذي يسمونه احتراماً تراثا، بل

يرى شرطياً يقدم الى البيت، ويعيده الى المدرسة بالقوّة. السنة الثانية، وكان قد نجح بتفوّق، عرف انّ الذي يغيب عن المدرسة متعمّداً لا تعيده الشرطة، حضر المعلم نفسه، ذاك الرجل الطويل النحيف، ذو الوجه العجينه، كما يطلق عليه التلاميذ الكبار. كانت الحكومة قد تغيّرت في العطلة الصيفيّة، وأعلنت الحكومة الجديدة عن اجراءات جذريّة في جميع النواحي، قال المعلم من يحبّ الرئيس، نهض الطلاب - عداه، غادر المعلّم مكانه القريب من اللوحة الخضراء. سأله بدهشة: انت يا هذا؟ هل انت نائم؟ بسذاجة بريئة قال: استاذ كنت تسألنا في العام الماضي من يحبّ الرئيس،

يخشون من تسلّل شيء معاد في يوم ما. من هذا المنطلق ترتفع اصوات تطلب محاسبة المسؤولين.

وقف في غرفة هادئة. نهض المحقق من كرسيّه. قال بابتسامة واسعة:

- سيدي، لا يمكن ان تجلس وأنا أقف، فأنت تمثّل الحاضر، وانا الماضي وعليّ ان افارقك باستهزاء.

فكنّا ننهض كلّنا، والرئيس لم يعد هو نفسه.

ارتبك المعلّم، امتقع وجهه، وخرج من أزمته منفعلاً. انتبه بعد الصفعة الى قطرات بول تبلل فخذيه، ويذكر الرقم (٧) في أوّل تصريح له، أنّ والده عرف من المعلم بالحادث، فقرص اذنه عند عودته الى البيت وقال بلهجة صارمة: يا ولدي عليك بالحاضر والماضي، لا تلعن احدهما على حساب الآخر، وحين تكبر، وتقرأ جيداً، تسمع وتعي انّ السيد الرئيس كلمةٌ تُطلق على كلّ من يذهب ويجيء، وحذار من السياسة!

بعد هذا العرض يصمت (الجثّة)، يمتنع عن الادلاء

وهنا لابدّ ان يبيّن صاحب السيرة اللبس الذي وقع بينه والمحقق، فقاموسه اعتاد على الكلمات الماضية. كان قول المحقق يعني لا يمكن ان تقف وأنا أجلس، فأنت تمثّل الماضي، وانا الحاضر، وعليّ ان أقابلك باحترام.

استفزّته الاهانة، فثار وأضرب عن الكلام. قدّم المحقق استقالته، ولم يجد المسؤولون بداً من تنسيب محقق ثان له اطلاع بلغة

بأيّة معلومات، فيعود ناسخ سيرته الى الرواة يستقي أخباره منهم على العموم دون تمييز:

خرج من مقابلة الرجل الرسميّ، فوجد الباب مفتوحاً. لم يستشفّ أيّ انطباع، شأنه كلّ مرّة، من رجل بلا رأس. كان على جلسته السابقة، تبيّن حدّة في صوته، وكان يقول: ألم أحذرك من قبل؟ ثمّ يبتسم الجثّة، أو يخيّل اليه أنّه يبتسم - هل تأتي معي؟ يدخلان في شارع ضيق تحفّ الحوانيت جانبيه. تلك هي المدينة القديمة تجمّعت في شارع ضيق، وخلع أهلها رؤوسهم. النّاس يخيّم عليهم الحزن، ولا يستقبلونه استقبال البطل المنتصر، ولأنّه يحمل رأساً يظنّونه

الماضين وطريقة حياتهم.

قال له بلغة دافئة: سأعطيك تراجم أسئلتي بلغتك القديمة، مع اعتذاري لك مقدّماً عن مثولك للتحقيق، فالواجب يدعو ان تحقق أنت معنا، غير انّ الذي أثار الناس هو طريقة دخولك البلد، بحيث لم يعرف بك أحدٌ إلاّ في وقت متأخّر، على الرغم من تقدّمنا العلميّ، وقدضجّ الناس، واهتزّت السلطة، كدت تُسقط دولة أيّها الجدّ القادم

غريباً جاء يستطلع مكاناً اثريّاً. يلتفت اليه الجثّة. هل اقتنعت؟ ويعود به ثانية الى المنزل.

في المساء رأى أجساداً أخرى بلا رؤوس. صاحبه القديم دعاهم لحضور اجتماع طارىء. هولا يستطيع ان يصف الاجساد من غير رؤوس وصفاً دقيقاً. جسدٌ قصير، وآخر متوسّط الطول، يدان غليظتان، وأخريان دقيقتان. اصوات متشابهة النبرات كانوا يحملون أرقاماً بدل الاسماء. صديقه القديم بلا اسم ايضاً. هذا هو اكتشافه الأخير. أنت يا خمسة ماذا تقرّر؟ يفكّر الرقم الخامس، ويقاطع الثالث. يصمت الجميع. صاحبه يحمل رقماً مركبا من ثلاثة ارقام.

من عصر لا أعرفه!

يرتاح للغة المحقق الشاب الذي أبدى صعوبة في صياغة تركيب الجمل، واضطرّ في نهاية الأمر الى كتابة الأسئلة على ورقة تقابلها ترجمة حرفيّة لكلّ سؤال:

- سيدي ابّها الجدّ كيف خرجت من المدينة = كيف دخلت المدينة؟

- هذا ليس صعباً دخلتُ في الماء.

يقول: ماذا تقرّون بشأن الرقم صفر. تستفزّه العبارة، فيقف أمامهم محتدّاً. الرقم الثلاثي يحاول تهدئته، ما عقدنا الاجتماع يا صديقي إلّا من اجلك. يقول رقم منفرد: كلّنا نعرفك قبل النفي - أنت لستَ غريباً عنّا، ويعقّب الرقم السابع (ومما تجدر الاشارة اليه انّ الرواة يذكرون الرقم السابع بصورة غير مباشرة في هذه السيرة):

- اسمع يا صديقي. أنا (٧)، نعم انا الـ (٧)، أحمل قدسيّة عند جميع الاطراف!

يتحدّث الرقم العاشر معه عن نفسه بهدوء:

- يا صديقي العزيز. انا أعرفك قبل النفي، لانني حاصل

- لم أعرضت عن ذلك = لِمَ قصدتَ ذلك؟

- انّها مدينتي يا سيدي.

لأوّل مرّة ينطق هذه العبارة فقد فارقها منذ ان أعرض عنه الصوت الآخر، ودّ هذه اللحظة ان يقابل الشيخ الوليّ أو يلوذ بالصوت الآخر. المحقق يقطع عليه تأمّلاته:

- ما هو عمرك = ما هو عمرك؟

جمع الارقام الأولى.

يلتفت اليه الرقم المركّب، ويحاول اقناعه:

- اتعرف الآن أننا لسنا مخطئين حين اخترنا لك الرقم «صفر».

يحرّك الرقم (٧) جسده ويعقّب:

- حاول ان تكون دائماً في الجهة اليمنى، اذا تحوّلت الى يسار أيّ رقم، فهذا بالطبع يجعلك لست ذا قيمة.

تصمت جميع الأرقام، ويبقى تحت تأثير الغضب، يودّ ان ينقلب المائدة على رؤوسهم، لو كانت لهم رؤوس، يخاطبهم بلهجة حماسيّة:

يسمع كلمة لم تتغيّر، فتنبسط أساريره.. يا ولدي عمري حسبما يذكرون ارتبط بالحوادث. نعم الحوادث أقوى رسوخاً في الذاكرة.

يرجع المحقق الى كتاب تاريخ قديم، وتاريخ معاصر. يقرأ حوادث مختلفة. مرّت البلاد سنة كذا بطاعون قضى على نصف السكّان، وحدث سنة كذا جفاف ذهب ضحيّته جمع كثير. بعد عشرين سنة دخلت المدن في حروب مدمّرة.

- ايّها السادة لن أختار، وبوسعكم ان تحتفظوا بآرائكم.

يفاجئهم انقلابه. كانوا يتصوّرون ثورته رفضاً للرقم صفر الذي بقي شاغراً. يستطلعون في ذاكرتهم المفقودة جزءاً من ماضيه. كان حدّياً الى درجة الصرامة عنيداً في مواقفه، وهم يشفقون عليه من الضياع. كلّ منهم يريد أن يقدّم له أقصى ما يستطيع من مساعدة. يجرّبون لغة التهديد. يستلّ كلّ واحد منهم آلة جارحة يخفيها في جيبه الداخلي. ويصيح الرقم (٧):

- عليك ان تقرّ بالواقع.

يحيطون به. يحيلونه عن الباب. يستند الى الجدار

لكّن التاريخ لا يذكر شخصاً ارتبطت ولادته بأيّة حادثة من هذه الحوادث. يطوي المحقق التاريخ. يسأله بدهشة:

ايّها الجدّ انّك تحيّرني.

- لم أولد في هذه الحوادث.

- لعلّ التّاريخ غفل حادثة مهمّة!

- يا سيّدي المحقّق كلّ هذه الحوادث حزينة، وانا ولدت في الحوادث

ويظل بعد ذلك يبحث في زوايا الماضي وهفوات الحاضر عن منفذ يتسلل منه. دائرة الأرقام تضيّق عليه الخناق، وأشدّ الأرقام حصاراً له رقم (٧)، حين يتبعه في إنقلاب الأزمنة واختلاف المكان، فيتذكّر فصول حياته المهملة!

تحاصره الارقام، وهو شاعر يكره الحساب، ويقرف من العمليات الرياضيّة. لاتعدّ بأصابعك واعتمد على ذاكرتك. يحلم ان يصل الى منتصف علامة النجاح، ١، ٢، ٣، ٤، ويقف عند هذا الحدّ. درجات الوسط تلوح له بعيدة، والعشرة قمّة العلامة أبعد اليه من كلمة مستحيل.

تحاصره العمليات ٣×٤، ٢+٥، ٦٧، والمعلّم

الفرحة!

- لكنّ التاريخ هو التاريخ!

- يا سيدي المحقق الحزن وقتي والفرح دائم، وما دمت قد ولدت في الفرح، فهذا يعني أنّي لستُ ماضياً فقط.

- انّي قد أعجز عن فهمك!!

ينتبه المحقق الى انّ صاحب السيّرة يحاول استدراجه - كعادة

يؤكّـد أنـه لن ينجـح هذا العام، لكنْ، قبل الامتحان يحضر الى بيتهم بدعـوة من والـده. ينجـح هذا العام، يصل بجهود مختلفة الى علامة النجاح، والآن المعلّم ووالده بعيدان عنه، والرقم (٧) يضعه تحت جذر لا نهاية له.

ويقـول الـرواة إنّـه لم يعـد يفيـده ان يوضّـح طريقـة انقسـامـه، فهنـاك فصـل من حيـاتـه يبدأ بكلمة! يتجه نحو ماضيه الى ما بعد الحصار بأيام معدودة ويساوي طفلاً.

الأقدمين ـ الى مسائل ثانويّة، فيعود الى اسئلته التقليدية.

ـ كيف فقدت ثغرة في السوّر = كيف وجدت ثغرة في السوّر؟

ـ مِنَ النّهر يا ولدي!

قال المحقق بلغـة ركيكـة لم يعتدها: هكذا اذن فنحن لا نستطيع ان نحرف مجرى الماء الذي يمرّ من تحت السوّر!

هدأت الضجّـة بعـد ان عرف الجمهـور حقيقـة التسلل، فلا

يتّجه نحو ماضيه = طفلاً

انسان ← يدان ← بلا رأس

سمكة ← زعانف ← ذيل

لأنّه لا يريد ان يجمع النهايات يلتقي بالأصلين.

بلا رأس، له ذيل، وزعانف، فيصير له رأس.

السلطة، ولا الأمن، ولا الشعب، مسؤول عن ثغرة الماء، ولا إشكال على الماضي ان ينصهر في أصله الأوّل القريب منه. بقيّة الامور لا تعني الجمهور والمسؤولين.

صدرت تعليـمات جديـدة الى المهتمّـين بدراسـة شؤون المـاء، ومحاولات اكتشاف الأصل المشترك للأشياء بدقّة، وكانت النتائج غامضة.

لكنّهم في هذه اللحظة يجرّدونه من كلّ شيء.
على البرّ تغيّرت الحال.
وفي البحر، الاسماك تلاحقه، فيبين غضبها من رؤوسها.

هؤلاء على البرّ بلا رؤوس، فلا يدري: أيغضبون منه في ساعة أم يفرحون بوجهه؟

الصوت الآخر اختفى تماماً
وبقي وحده يفكّر
والآخرون يخططون لاغتياله.
لا - اغتيال رأسك.

قبل التحقيق احتجز منفرداً خوفاً من ان يحمل أمراضاً قديمة؛ كانوا يعاملونه بلطف ورقّة متناهية، ربّما يسألونه بطريقة خبريّة، ويجرون عليه فحصاً، وهو نائم لئلا يثيروا انفعاله، ثمّ أطلقوا سراحه! وسمحوا له بالعيش مع الناس كونه يمثّل ثقافة أصلية، وذكريات لا يستغني عنها الافراد.
وكان يقابل الأحاديث بصمت.

يظهر الصوت الآخر فجأة: يتجرّد من رقّته، كأنّ المشهد يتحوّل الى تمثيليّة حزينة:
- سيّدي إنّهم لا يحاولون اغتيالك.
هو: الم ترهم يحملون الآلات الحادّة!
الصوت الآخر: انا أقول إنّك غبيّ.
هو: كيف؟
الصوت الآخر: سيدي انّهم يريدون ان يقطعوا رأسك!
هو: لكنّي أستطيع ان اتحوّل الى أيّ شيء. صرصار. سمكة. فأر. أيّ مخلوق كان، دون ان أتخلّى عن اي جزء من جسدي.

الكلّ مصرّون على أنّه من أهل الكهف، ويبقى يعدّ المدينة للحظة متأخّرة مدينته الأصليّة، وبما انّ المهتمّين بالتّاريخ لم يأخذوا بأقواله، ورفضوا ان يقرّوها على أساس علميّ، ولأنّ اذنيه أيضاً لم تعتادا الأسلوب الجديد في جعل الاضداد هي الأساس، فقد أصرّ على الصمت حتّى تُنفّذ مطالبه لا باعتباره ماضياً ملغيّاً، بل لوجوده حاضراً يعيش في الماضي.

يسمع صفيراً حاداً. . . صفيراً طويلاً، وضجّة خارج المسرح. يقتحم الباب الخلفيّ مجموعة من المسلّحين بأدوات قديمة. لِمَ كلّ هذا؟ قطع رأس واحد يكفيه آلة واحدة، يستنجد بالصوت الآخر. يتذكّر الشيخ الولي الذي قال انا منقذه من أيّة شدّة. يسمع ضجّة. يجهل اين اختفى الصوت الآخر، في الوقت الذي بدأت ستارة المسرح بالهبوط البطيء.

وفي نهاية المخطوطة: اشارة الى انّ هبوط الستارة كان من صالحة لآخر لحظة، وربّما مرّ بخاطره ان يقفز من الخشبة نحو المقاعد دون ان يفكّر بمخاطر عمله، لذا أنهت المخطوطة خبرها من غير تعليق، وكان تدوينها للخبر بلا زيادة على شخصيّته او نقصان، سببا في جعلها مهملة عدّة قرون!

من هنا بدأ يتعارض مع الناس الذين وقفوا يؤيدون المسؤولين، مع هذا ظلّوا يتحاشون إثارة غضبه، ولا يدري هل يذكرون وجوده الذي كاد يقلب السلطة في يوم ما بالاضافة الى امتيازاته الأخرى.

فصل يرويه عنه الرقم (٧)

يعلن الرقم (٧) أنّه كان يشفق عليه. اضطرّ تحت إلحاح الوازع ذاته الى اشهار السلاح بوجهه تخويفاً له لكي يستثني فيرجع عن قراره ويقبل بأيّ رقم من الصفر الى ما لا نهاية على الا يكون الرقم المطلوب ملحقاً بأحد غيره.

حين دخل المدينة لم يكن أمره خافياً على أحد، فقد شاهدت الرجل الآخر يلاحقه، شخصٌ مدوّر الوجه، طويل القامة، يرتدي سروالاً أسود، وقميصاً بنيّ اللون، أمّا ربطة العنق فتكاد تلفت النظر بضيقها. هذا الوصف نفسه ينطبق على صاحب السيرة.

ونحن لنا مواقف من الشخص الآخر، فهو وان كان يشبهه في الشكل، ويعاصره قبل ولادته باتفاق المصادر، فإنّ صاحب السيرة أكثر صرامة منه، ووعياً للأحداث المعاصرة، أمّا الشخص الآخر، فيهتم بالماضي، وأحياناً المستقبل فقط، وهذا ما اكتشفناه قبل نفيه، ويطلقُ عليه (الصوت الآخر) وكان ذلك بعد النفي.

غير انّ هذه مسألةٌ يمكن ان نغضّ النظر عنها مؤقتاً لو

لم تبد وجهات النظر متعارضة ليلة القاء القبض عليه ونفيه، لا يعقل ان يُنفى أحدهما ويبقى الآخر. أذكر تلك الليلة جيداً، والاحداث التي مرّت بعدها. استفقنا في الصباح فعلمت المدينة أنّه مختطف، أو قلْ بعبارة صريحة، معتقل، والمسؤولون يدعون أنّ جهة مجهولة ألقت القبض عليه، وذلك ما يعيه النّاس تماماً عندما كان لهم رؤوس، وقبل ان يتحوّلوا الى ارقام. يقال ان الشخص الآخر كان قريباً منه تلك الليلة بحكم الجوار، وعلاقة دم تجعلهما لا يفترقان، واذا النّاس يعيشون مفاجأة غير متوقّعة.

الشخص الآخر مختطف أو معتقل معه، لكنّهم عرفوا نقيض الامر. انّه في سفر، وسيرجع بعد ايّام معدودة، كان ذلك سببا في انقسام المدينة. عاش الناس جدالاً، ونسوا مسألة الخطف. بعضهم يقول: سافر حسب أوامر صاحب السيرة، والله أعلم بسرّ السفر، لعلّه يخطط لحدث خطر، بعضهم يرى أنّه خائن له ضلع في الدسّ على صاحبه، وسفره تغطية لعمل يبرر سلامته. تحوّل اختلاف الرأي الى نزعات فرديّة عنيفة، كادت تخرج من اليد الى عمل جماعي معقّد. أذكرُ جيداً أنّي كنتُ أتابع التطّور بقلق، وقد عقدت عدة

لقاءات مع صاحبه القديم الذي أصبح رقماً ثلاثياً فيما بعد. كان يرى فيه رأي الجماعة الأولى. أقنعته بعد جهد ان يتحفّظ لحين دراسة الموضوع دراسة وافية. قال لي صديقه القديم. قد ينجو صاحب السيرة، فيدلّي بمعلومات عن خاطفيه. انتظرنا طويلاً فلم يصدر منه ايّ تصريح، فاعتقدنا موته، وبعد أيام رجع الرجل الآخر، وكانت الحكومة خلال فترة غيابه تعدّ مشروع السور لأسباب اختلف فيها، ولا مجال لذكرها هنا.

لم يصرّح بأيّة معلومات. ظلّ صامتاً لا يقابل أحداً. توقّع الناس ان يحدث شيء، انتظروا التغيير، اليوم، غداً، بعد غد، والوضع يبقى على ما هو عليه. ازدادت الشكوك فيه، والانقسامات حوله، وجاءت النتيجة غير متوقّعة. الرجل الآخر هرب خارج الحدود، واختفت أخباره وأخبار صاحبه، وفي فترة غيابه اكتمل بناء السور، وصدرت قرارات جديدة. تغيّر مسؤولون بآخرين، حدثت امور غريبة، ونسي الناس القصّة تماما.

وعندما رأيناه يتجوّل في المدينة حائراً بعد رجوعه، عرفنا أنّه كان منفياً، ازدادت شكوكنا فيه، وقال لي صديقه

القـديم، لماذا لم يصـرّح في منفـاه عن الجهـة التي خطفتـه، وأجـبرتـه على مغـادرة مسقط رأسه؟ سؤال محيّر فعلاً، لعلّ الآخرين يتهمونني بالتحامل عليه لضغائن بيننا سـابقة، اذا قلت ان صمتـه الطـويـل يرجع الى أنّ السلطة تحتفظ بوثائق تدينه هو نفسه، لكنّ هذا سرّ أبقيه لنفسي ولا أحبّ ان اطلع عليه أحداً سوى صديقه القديم!

من يره أوّل الأمـر يظنّـه أجنبيّاً يحمل رأساً، لكنّ الرقم (٧) يشـكّ في امـره، ويعـود الى دفـتر مذكّـرات كتبـه بوقت متأخرّ. ظلّ يراقبه باهتمام، فعثر على مواصفات مطابقة لزمن بعيد يرجع الى ما قبل النفيّ.

كان الـرقم (٧) زميـلاً له في المـدرسـة. اكـبر منه بعام تقريباً. لم يكن خارق الذكاء بقدر ما هو مطبوع على الرفض والتمـرّد، وفيـه رغبة لاقتحام الاشياء، ولو كانت رديئة، مثل محاولـة تقليـد الطـلاب الكبـار بالقفـز على مجاري المراحيض الفائضه وفشله.

وتشـير بعض الأخبـار الى نزاع غير عنيف حدث بينه وبـين الـرقم (٧) في مرحلة المـراهقـة، فقد عاش فترة قلقة، دفعه الشكّ فيها الى نكران الاصول القديمة للواقع المعاش.

اراد ان يبنيَ افكـاراً جديـدة لا تعتمد على الماضي فتعثّر، ثمّ أحسّ بخطأه، منـذ ذلـك اليـوم والرقم (٧) ينظر اليه بريبة، لكنّـه يحسـده على شيء واحـد. انّـه يستطيع الانقلاب الى أكثـر من صورة: (٢) أو(٨) أو حرف. امـا صاحب السيرة، فقـد بقي في موقع واحد طيلة فترة التغيير التي تحصل للاشياء الخـارجيّـة، ولا بدّ ان يحدث تعـارض بين الاثنـين لعـلاقات التغيـير، هو من الـداخـل، و(٧) من الخـارج. هذه الصّفة المتناقضة دفعت الرواة الى افتراضات تجاهلها الرقم (٧) في مذكراته.

يشكّ بعض الـرواة انّ لـ (٧) علاقـة في الـدسّ عليـه لدى المسؤولين. كان حتماً يعرف وقت استدراجه ونفيه، وإلاّ لم اكتفى بالاستنكار مثل عامة النّاس ليلة نفيه؟ وهو اي - ٧ - يحمـل القـداسـة عنـد الكثـيرين بلا استثناء. كان يمكنه ان يتـدخّـل لصالحه، ويبقى شكّ الرواة فرضاً فقط، يحتاج الى برهان قاطع.

غير ان الـرقم (٧) أقـوى من ان يسقط فريسة سهلة، ففي دفتر مذكّراته توضيح لعلامات شكّ تحوم حوله:
إنّي لم أكن أحمـل الـرقم ليلة اعتقـالـه. كنت اسـماً عاديـاً،

حصلتُ على الرقم بعد ان الغيت الاسماء.

(٧) يراه في المدينة منذ اليوم الأوّل لرجوعه متسللاً. يفكّر قليلاً، ويقصد منزل السيد الرقم المثلث. لم يكن قدومه مفاجأة للاثنين، فالرقمان يعرفان أنّه سيعود مهما طالت فترة نفيه. ولنفرض وفاته، فإنّ أيّة سلطة جديدة، تجد نفسها خارجة عن الاخلاق اذا منعت استقبال جثمانه - حسب رأي السيد المثلث -.

يحقق الاثنان في الأمر. يقتفيان اثره، في اليوم التالي يوجّهان دعوة الى الصّوت الآخر. يبدو أنّه لم يُعِر اهتماماً لانقطاع (الرجل الآخر) عن ملاحقته فترات طويلة. اذ كان يحضر اجتماعاً مغلقاً مع (٧) و(الثلاثي).

أبدى الرقمان اهتماماً كبيراً بالرجل الآخر، فهما على يقين بأنّه يستطيع ان يغيّر مجرى الحدث. يقرّر الثلاثة استدراجه بحكاية رافقته منذ الطفولة، فتنقلب المدينة بكاملها من الحركة الى السكون، وتبدأ حكايتها من النهاية بالضبط:

٧ يظنّ النّاس أنّهم كانوا في غفوة.

٦ رجل يقذف نفسه في الماء.

٥ انت تنقذ المدينة حينما تصبح قربانا.

٤ الحقيقة انّ فترة التحجّر دامت سنوات.

٣ المدينة تكره الساحر فلا تجعله ملكاً عليها.

٢ الساحر يغضب من المدينة.

١ ينزل السحر على النّاس فيتحوّلون الى تماثيل.

(انتهى).

يتدخّل الرجل الآخر معترضا:

- قد يجد صاحب السيرة عذره في الصيادين!

الرقم الثلاثي يفكّر بعيداً. يتطلّع في الوقت، ويعقّب:

- الوقت يضايقنا وبقاؤه أكثر من ثلاثة ايام، يقوده لنهاية لا فائدة منها.

كان الرقم (٧) يدقّق في حسابات بعيدة تبرر فعلهم:

- انّ الصيّادين يتكلّمون لغة يفهمها ويحتفظون برؤوسهم، لكنّهم لا يستطيعون دخول المدينة.

صديقه القديم يؤكدّ ذلك:

- نحن لانخدعك أيها الصديق العزيز. تستطيع التأكد بنفسك. انّ هؤلاء يمثّلون علامة ربط بين الماء واليابسة.

اقتنع الرجل الآخر بتحليل الرقمين، فالشفقة هي الدافع الأوّل الذي يدعوهما، وكلّ الارقام، لمثل هذا التصرّف، وكان عليه ان يختفي فترات عن صاحب السيرة بدلاً من خلع رأسه، فالآراء تتفق على ان يظهر في ساعات الانفعال فقط.

عقدت الارقام لقاء مغلقاً، بينما لم تدع الرجل الآخر لحضوره حتّى يكسب الثقة في اكثر من تجربة. في الاجتماع المغلق اتخذوا قرارات خطيرة. اقرّوا استدراجه الى الحلم السابق، فيختار طريقين: اما ان يخلع رأسه او يغادر مرّة اخرى. أبعدوا المصادفة من اختيار حلم مقصود، وكلّفوا الرقم (٧) ان يفتّش عن كلّ الاحلام، ويلتقط أكثرها خصباً للاندماج بذاته، ولأنّه صحا منذ ثلاثة ايام، فالرقم التكعيبيّ يضمن النتيجة على عاتقه شرط ان يبعدوه عن كلّ ما يقطع نومه ويؤخّره.

انفضّ اللقاء بلا اعتراض، وربما يكون أول اجتماع يحظى بجميع الاصوات. يأمرون الرجل الآخر ان يلتحق به قبل دخوله المطعم. يرافقه، يطلب منه ان يفعل. يثير غضبه تارة، وتارة يكلّمه بلطف.

يتساءل: مَنْ منا لم يتغيّر؟

يخاطبه الصوت الآخر: سيدي أنت والمدينة

- ومن منا يتغيّر؟

- سيدي أنت والمدينة!

تصبح لغة الرجل الآخر أكثر غموضاً، وينقلب الصحو بعينيه الى جوّ ضبابي يحجب عنه الرؤيا. يتفحّص العملة المعدنية ويتساءل ثانية:

- هذه تثبت أنّ المدينة لم تتغيّر!

ينسحب الرجل الآخر. يتركه وحيداً على الرصيف، وقد وضع عكسه على ركبته، وأسند رأسه بيده.

وقبل ختام الفصل نجد رواية الرقم (٧) تختلف عن مخطوطات الرواة بعد عصره. تذكر المخطوطة انّ الذي قصده هو (٧) نفسه لا صديقه القديم، والسبب يرجع الى انّ الصديق القديم قصير العبارة ضيق الصدر، يضجر من العمل الشاقّ، وكثيراً ما يترك أعمالا لا يبدأ بها الى المنتصف. ثمّ حدث التغيير دون ان يشعر. كنتُ أمشي جنبه فالتحق بنا صديقه القديم. كان يسير خلفي ولا يثير ضجّة. اغتنمتُ غفلة منه فانسحبتُ الى الخلف، وحلّ صديقه

القديم مكاني.

ونجد السطر الأخير يختلف عن الفصل الذي سبقه: حين خرج من مقابلة الرسميّ اخبرنا (الرجل الآخر) عن صاحب السيرة أنّه يفكر ان ينتظر دوره، فيحلّ محل مسؤول كبير يموت. خطرت له هذه الفكرة مراراً. قلت له: لماذا تقدم على هذا الأمر؟ فأجاب أنّه يروم ان يستغل منصبه فيعيد المدينة الى سيرتها الأولى. أمّا الرجل الآخر فلم يترك مخطوطة تؤيّد القول ـ عدا اقوال يرويها الثقاة ـ كان لا يفكّر بالكتابة، ويضع الرقم (٧) هامشاً للسطر الأخير:

رجع من مقابلة الرجل الرسميّ. دفعتنا الشفقة الى اتخاذ اجراء سريع، فاقتناعه يعني تشويهاً لماضٍ عايشه لا تشوبه شائبة، وحاضر قلق يستفزّه كلّ لحظة. النتيجة معروفة سلفاً، لذلك تركنا الباب مفتوحاً وهنا ايضاً نلاحظ اختلافاً عن الفصل السابق.

حاصرناه لا لكي نطعنه، كنّا نطمح في ان يرضخ او يخرج وبيده أحد القرارين، تجاهلنا متعمّدين ثغرة في الحصار، وكان الباب مفتوحاً، لكنّه انتبه الى الثغرة، فاندفع كالسهم نحو الباب، وهو صامت لا يتكلّم!

يوم تخلصه من الرجل الآخر

لم ينس ان يغلق الباب خلفه هذه المرّة. كان يلهث والعطش يخشّب لسانه. يتمعّن بصورته في الماء، قبل ان يقذف نفسه يستنتج انّ الاشياء العاكسة تشترك مع الماء، وأخيراً يحصل على مرآة!

يضع المدينة أمام المرآة، فيبصر النّاس برؤوسهم. تمرّ المشاهد أمامه متكاملة [يرى المدينة على حقيقتها، الشوارع ضيقة، والارصفة تختفي، بيته هناك في التقاطع الضيق، وبنت الجيران تستيقظ من النّوم، فتفتح النافذة، وتنتظر ان يمرّ بمحاذاتها. الناس هادئون، صامتون، لايثيرون أيّة ضجّة. كانت اذا حزنت رأى فرحَهُ في عيون الحارة، واذا حزن النّاس مرّ بها فيجدها تبتسم في وجهه].

يتداخل الحلم، فتعود له الذاكرة قوّية لا تنسى ادقّ التفاصيل...

صديقه القديم، بقامته النحيلة، وجبينه الضيق، ووجه طويل يكاد يشبه مجرفة. الرقم (٧) ذاك الرجل الأصلع من هامة رأسه، يزيد وجهه اتساعاً منخران

عريضان، وأنف غليظ. منظره يبعث الهيبة فعلاً، لا سيما أنّه يضيّق حاجبيه دائماً فيبدو أشبه برجل غاضب.

ويبصر بين المشاة الرجل الآخر الذي رافقه في رحلته منذ الطفولة، وفارقه فترات، هو الوحيد الذي يظهر بدون رأس (يحدّثهم لكنّهم يمرّون أمامه صامتين. يزداد غضبه من سكوتهم، فيصيح فيهم، مع أنّه لا يقدر ان يلتفت الى الوراء خشية من التحجّر) وعندما تتمّ المدينة دورتها، تتوقّف الحركة، وتجمد المشاهد إلاّ الرجل الآخر الذي فقد رأسه، يتطلّع اليه في المرآة بين التماثيل.

تختفي الدوافع الأخرى، ويبقى الانتقام وحده. لا تلتفت، وتابع في المرآة كي لا تتحجّر [الفارس قبلك أحضر مرآة لوحش قتل كثيراً من الفرسان فمن رآه عينا تحجّر في الاحلام وعلى صفحة المياه، وفي المرايا وكان ذكياً، وشجاعاً، فأحضر مرآة، وتطلّع فيها الى الوحش، وكان يسدد اليه السهام عبر المرآة حتى صرعه وهكذا أنت].

يلاحق الرجل الآخر في المرآة. يهرب منه بين التماثيل، وسكون المدينة، وماض قريب، يلفّ خلفه، والمرآة بيده، وعيناه لا تزوغان عنها، هو بين التماثيل وليس له

رأس، لكنّه يركض بخطوات أوسع، وأنت لا تستطيع لحاقه إلاّ إذا انفردت به على الطريق المؤدّي الى النّهر، فالمرآة وحدها لا تكفي، ورأسك لا يكفي، قد يكون المتجرّدون عن رؤوسهم أكثر ذكاءاً منك!

يلاحقه باصرار. تضيق المسافة بينهما، واذ يفرّ الرجل الآخر الى مشارف المدينة، يرمي المرآة، وينظر اليه مباشرة، يعود الرجل الآخر الى رأسه، يركض على الشارع العريض باتجاه النّهر. أصبح قريباً منه، ولا مكان يؤويه، فالأرض منبسطة، وليس على جانبي الطريق، أيّة مظاهر تخفيه. يعثر الرجل الآخر، فيلحق به. كانا يلهثان من التعب..

يصيح: متآمر!

الرجل الآخر وهو يلهث:

- لا سيدي كنت أشفق عليك!

مسكه بحقد من ثيابه، وعادت المدينة الى الصمت. كان الجسدان، يتدحرجان على الشارع. أيقن انّ الرجل الآخر أقوى منه لكنّه يملك التصميم على الاطاحة به. يحسّ بقوّة غريبة تتجمّع في يديه وأسنانه. ينقلب الرجل الآخر، فيحسّ بثقل يجثم على صدره. في وجهه أثر

جروح، لا يشعر بها ساعة العراك. انفاسهما تتلاحق، والمدينة تغيب في صمتها متجاهلة عراكاً على مشارفها بين ما أطلقت عليه قبل ايام الجدّ، وصورته منذ الولادة الى الآن!

يتعب الرجل الآخر ويستسلم. حركاته بطيئة، وتنفّسه يتلاحق.

ـ كنت تتآمر!

ـ تذكّر أنّي انقذتك أكثر من مرّة!

ـ كنت تتآمر!

ـ رافقتك في رحلة الماء.

ـ خائن.

ـ كلا يا سيّدي. أشفقت عليك!

يشدُّ بيدين غليظتين طرفي ربطة عنقه الرفيعة، يندلع لسانه، فيرى جثّة هامدة بين يديه، ويحسّ بآلام في وجهه، وركبتيه، يسحب نفساً طويلاً، كأنّه تجرّد قبل لحظات من ماضٍ ثقيل كان يسجنه منذ الطفولة.

كان قد ترك جثّة خلفه.

لم يدر أنّه لم يترك جثّة.

رأى قطرة دم تسيل على الشّفة السفلى.

واصابعه تشير باتهامه.

حاول ان يهرب بجريمته.

لم يلتفت الى الخلف خشية من الذكرى.

ظلّ يركض كأنّ الأرض أضيق من خطواته.

والطريقُ كما تصوّره أقصر من ساقيه.

لكنّ الأرض بدت منبسطة أمامه.

أين يختفي؟

ـ لا يدري.

أين يذهب؟

ـ لا يدري.

همّ ان يرجع الى مكان الجريمة.

تردّد كثيراً، وفكّر قليلاً.

وجد الاحلام تنفيه.

والأرض تتثاقل منه.

وصوت يصرخ في أعماقه: عليك ان تواري الجثّة.

قتلته عمداً يا هذا.

[لم أقتله، ففي رواية أخرى أنّه حاول خيانتي، وكان يتشاور من وراء ظهري، متجاهلاً استشارتي في أمور

تخصّني. أحياناً أسأل نفسي: أين يتركني ويذهب؟ فأخترع سبباً أعلل به شكّي أو أتجاهل، واليوم عرفت الحقيقة المرّة. كان يتودّد اليّ، ويتذلل. رافقني في الماء، وعلى البرّ، وأبدى نيّة حسنة، ولم يذكر الرواة من بعدي أنّي قتلته، لكنّهم يذكرون، رواية أخرى عن شخص فقد ظلّه، وأخرى عن أخ قتل أخاه، والحقيقة أنّ الأخ قتل أخاه غير متعمّد، رماه بحجر، دون ان يعرف نتيجة فعلته، ولم يكن يعرف ما الموت، أو اغرف عندما كنت أصيد الحمام بمصيدة الفئران].

يذكر فقط أنّه كان يقتل الحمام، والصيّادون يقتلون السمك كلّ يوم، ويسمع بقيّة الحكاية، فالصيّاد ظلّ يبحث في النّهر عن سمكة غريبة شرط ان تكون انثى لينفّذ مشيئة السلطان. انقضت الايام الثلاثة. غضب السلطان، وشنق الصيّاد، وكان هو بالذات مشكوكاً في أمره الى ساعة متأخّرة [الخبر يُنسب لأحد الذين عاصروه، يُعتقد من اسلوب الدسّ أنّه للرقم ٧]، منعته والدته في كثير من الاوقات ان يخرج الى الشارع، ويختلط بالاطفال. كان مدللاً ـ كأيّ ولد وحيد لأبويه ـ، ويقال لهذا السبب عاش وحيداً ولم

يتزوّج، لأنّ بنت الجيران تمثّل بالنسبة اليه عقدة كبيرة. لم يخاطر ليقبّلها، ولا تحدّثنا أيّة رواية عن علاقة جسديّة حدثت بينهما سوى النظرات. كان يستطيع ان يلتقي بها على السّطح، أو يتسلل الى غرفتها ليلاً، ولم يفعل، بعض الرواة يشككون في رجولته، لينفوا عنه تهمة القتل. أحد الرواة يقول: إنّه رأى مرّة رجلاً يموت، وتصفّر رجلاه، فخاف وانهزم الى البيت. بقي حزيناً طول اليوم يفكّر بالموت، فكيف يقتل على حدّ تعبير الراوي.

ـ أنت مذنب.

ـ أنت لستَ مذنباً.

مذنب وبريء بالوقت نفسه، وهذه علّتك الدّائمة.

يسيرُ الى مكان الجريمة

لكنّه يضيّع المكان و[يذكر فقط أنّه كان يقتل الحمام...]

لم يعد يذكر اين كان؟ ومتى اقترف جريمته!

ولعلّه اذا رجع لا يجدّ جثّة!

هكذا كان يعلل نفسه

وقبل ان يفقد احساسه بالمكان ينتبه الى نفسه،

فيهرب من جريمته الى الأرض المحايدة!

فصل من اضافة الرواة

كنتُ في سفر خارج المدينة حين القي القبض عليه. لا أستطيع ان اصرّح بأيّ شيء، سوى أنّي سافرتُ، وعدتُ ففاجأني غيابه. وجدتُ الناس مختلفين فيّ، ومتفقين له [التزمتُ الصمتَ فترة بانتظار ان تصل اليّ أخباره. طال انتظاري بلا جدوى. يتّسع اختلاف الآراء يومياً، وانا في حيرة. اتهموني بالتآمر عليه لأحلّ محلّه. بعضهم رأى فيّ رجلاً مخلصاً يعمل بصمت أكثرمما يصرّح].

بعد ايام ارسلت الدولة في طلبي، زيارةٌ رسميةٌ خاصة، ولهجة المسؤول كانت صارمة.. اذا صرّحت يا هذا فستتخذ بحقّك أقسى العقوبات ثم... [الرجل الذي استقبلته هو نفسه الرجل الذي تحدّث معي. قال لي لقد نُفي صاحبك. استغربت من الأمر تماماً. اذا صحّ قوله، فلِمَ لا يصرّح عن الجهة التي نفته. قال لي المسؤول ايضاً انّ لدينا وثائق تدينه، ولديه وثائق تديننا، كلانا يصبر على صاحبه. عليك ان تتخلّى عنه وتقف مع أحد الطرفين المتنازعين]. اما اذا

غادرت البلاد فنحن على استعداد لتسهيل مهربك!

انا اشبهه تماماً، وأميز نفسي عنه دائماً بالبدلة البنّية وربطة عنق رفيعة تلفت النظر. خشيت أن أغيّر ملابسي فيظنني الناس هو، بالتالي اقترف جريمة جديدة تلتصق بي. لماذا أنت يا هذا جعلت الناس يعيشون على حلم كاذب. السؤال يراودني كلّما هممت ان اخلع ملابسي وأقلّده [علماً انّه كان يلبس بدلة سوداء، ولا يهتمّ بربطة العنق].

وقعت في احراج، وكان الشقاق يزداد يوماً عن يوم. ربّما لعنني بعض المتطرفين، واتّهموني باشياء لا أعلم بها.

بعد تفكير طويل قررت اللحاق به لاطّلع على حقيقة الأمور. فقصدت اطراف المدينة، وكان المسؤولون قد باشروا ببناء السّور منذ اختفائه. بحثت عن مكانه فلم أجده. لا أعرف لماذا أحاط اقامته بالغموض، وسكت عن امور كثيرة يجب ان تُقال.

الواقع أنّي لجأت خلف الجبل. كنت استفيد من موقعي، استقبل المتسللين، وأنادي على المختفين. أيست منه تماماً. طال انتظاري وانتظارهم، ولانّهم جماعة، فقد فكّروا بالاقامة خلف الجبل، ونسيان المدينة. اقاموا، وبنوا

البيوت، واستعدوا لغربة طويلة!

وفي يوم ما لا أذكره بالضبط. رأيته. ناديت عليه من موقعي. تجاهلني، رجوته ان يقدم. بقي على موقفه، فلم أجد بدّاً من الاتجاه اليه، وجدته غامضاً، يفكّر قليلاً، ويسرح ما وراء الأفق.

[دخلنا المدينة فوجدنا كلّ شيء تغيّر. إنّه كان صادقاً في وصفه الدقيق عن الشوارع، واللهجات الغريبة، والوجوه الجديدة التي شاهدناها. كنت مجبراً ان نعثر على مظاهر الماضي، ففشلنا، ربّما يعتقدني النّاس خائناً، وهم يطلعون على الحقيقة اوّل مرّة، لكنّي أقول، كنت مجبراً على الاتصال بالرقم (٧). وصديقه القديم. انا لم أقصدهما اطلاقاً. كانا يراقباننا. قرأت في نظراتهما اشفاقاً، فتركته بعض وقت. قصدت مع (٧) بيت الثلاثي تحدّثا أمامي عنه بأسف، وقالا إنّه مضطرب الفكر معقّد، يمرّ بأزمة نفسيّة حادّة، نخشى ان يُفتضح سرّه، فيعرف الجميع أنّه لم يفعل شيئاً خلال تلك الفترة الطويلة. سمعت الصدق في اقوالهما، فهو بنظر القليلين الباقين، مثال لوقت العزّ والعظمة، لا يختلف فيه اثنان، وقد يسقط من هيبة المواطنين.

قال الثلاثي بحدّة: علينا ان نقتله.

وقال (٧): هذا أفضل بدلاً من ان يصاب الحيّ بإحباط!

قلت: لا أؤيّد هذه الفكرة!

قال (٧): اذن نجبره على العودة للمنفى كَي يبقى رمزاً.

حبّذت الفكرة، واتفقت على ان اختفي ساعة لقائه بهم].

لم أعرف أنّهما يخططان لنفيي وعقابي إلاّ مؤخراً، بالأحرى كانا يظنناني خائناً، فأرادا ان يقتلاني به، يضربان كما يقول المثل عصفورين بحجر واحد!

تلك اللحظة كنت مُختفياً في الغرفة الأخرى بناء على طلب الاثنين، عندما عارض هاجمته الارقام. سمعت صوته [فرحت أضرب الباب بكلتا يدي ،وأركله. انكسر مصراعٌ فاندفعت نحوه، رأتني الارقام، فارتدّت الى الخلف. قالوا له: هو الذي استدرجك الينا، اشاروا نحوي. لو كانوا صادقين لهاجموني، ارادوا ان يلصقوا به ذنباً يدينونه فيه. هذا ما توقّعته، وبالرّغم من ذكائه، فقد انطلت عليه اللعبة. اعترف أنّي أخطأت بدافع الشفقة عليه، فأخفيت عنه خبرهم.

لم يعِ موقفي فاندفع نحوي زاعقاً، هربت أمامه، استدرجه، موقفي لا يساعد اطلاقاً على الشجار معه في المدينة. سرنا سيفتضح بالتأكيد، وسيكون علامة يأس جديدة تضاف الى العلامات الأخرى التي رأيناها.

[اعرفه يتجاهلني تماماً في دفاعي عن نفسي، وهذا هو خطأه القاتل].

كنت الاقوى منه، من الناحية الجسديّة. ركضت أمامه. اندفعتُ بكلّ قوّتي. اندفع خلفي زاعقاً. سحبته الى اطراف المدينة. أشفقت عليه ان يسقط من التعب، فسقطت أمامه. كان عملي تمثيلاً رائعاً. لو كنت امثّل لما ميّز النظارة فعلي عن التمثيل. للأسف الشديد أنّي اكتشفت هذه الموهبة في آخر لحظة.

مثّلت أمامه لأعيد له الثّقة بنفسه. انقلبت فوقه. انقلب فوقي. انتبه الى ربطة عنقي، وهو يصارعني، فشدّ طرفيها بكلتا يديه، عضضت على شفتي السفلى، فانحدرت قطعة من الدم، ودلعتُ لساني.

سمعته يبكي بكاءاً مرّاً، ورأيته من طرف خفيّ يسير باتّجاه الأرض المحايدة نحو مقهى الصيّادين. زحفت بجذر

الى مكان آخر، وكان يبحث عن جثّتي، ثمّ يسير الى المقهى ثانيـة. انتظـرت لحظـة [رأيتـه يدخـل المقهى، فدلفت خلفه، وكنت أقابله وجهاً لوجه].

تتضارب الآراء حول نهايته

تتضارب الآراء حول نهايته.

الرقم (٧)، والتكعيبي يلمّحان الى أنّه كان يعاني من انفصـام الشخصيّـة بعـد عودتـه الى المـدينة، يتخيّل النّاس أرقـامـاً بلا رؤوس، وينتظـر دوره في الارتقاء محلّ شخصيّـة كبـيرة، دفعتنـا الشفقـة لاحتوائه، لكنّ حالته ساءت، فقتل شخصـاً بريئـاً، وانهـزم خارج الحـدود. اهتـزّت المـدينـة للحادث، انّها أوّل جريمة قتل تحدث منذ سنوات.

أمّـا الـرجـل الآخـر، فقد قُتِل في ظروف غامضة، ولم يترك سوى شذرات تلاعب بها الرواة.

الـرواة يخالفـون الـرأيـين السـابقـين، ويتمّـون قصّته بالاستنـاد إلى توقّعـاتهم يروون: تخلّص من شخص يرافقـه كظلّه بطـريقة مجهولة، وبقي يسير وحده الى المنطقة المحايدة باتجاه مقهى الصيّادين.

لم يكن أحـدٌ هنـاك عدا البـائـع. السّكـون يخيّم على المكـان، يقضّـه أحيـانـاً صفير البخار المندفع من فتحة وعاء فوق النار. يغادر صاحب المقهى المنصّة إليه، ويقف أمامه

مبتسماً.

ـ أراك عُدت ثانية؟

ـ لكنّك لم تكن تكلّمني في السّابق.

ـ أنت الآن وحدك!

ـ اين هم الصيّادون؟

ـ مازالوا يبحثون عن حوريّة البحر.

يسمع وقع اقدام. ينتبه الى ظلّ يحجب تسلل الضوء من الخارج. الرجل الآخر يجتاز اليه الباب، على وجهه كدمات، وظهر بملابس ممزّقة. كان قد تخلّى عن ربطة العنق الرفيعة.

يضطرب. يعاوده خوف قديم. في الوقت نفسه ينسحب صاحب المقهى الى المنصّة صامتاً.

ـ ماذا ألم أقتلك؟

ـ لم تقتلني، بل تخلّصت منّي!

قال بلهجة رجاء:

ـ هل تظلّ تلاحقني دائماً؟

ـ سأتخلّص منك مثلما تخلّصت منّي.

عرف أنّ الرجل الآخر لا يتركه. سينزل هذه المرّة الى

النّهر وحده. عليه ان يقرّ بالواقع، بقي الرجل الآخر يتابعه بنظرات كلّها شفقة. ومشى الاثنان صامتين الى الماء...

ـ ليس من السهل أن أراك تتلاشى.

قال الرجل الأخر عبارته بلهجة حزينة، ثمّ تركه باتجاه الامتداد المترامي...

تمعّن في صورته بالماء، كان يبصر المدينة تتحرّك، والنّاس لها رؤوس، ويسمع عن بعد اغنيات فرحة يرددها الصيّادون. الرجل الآخر، المدينة، بنت الجيران، امّه التي تركها على الجرف في حلم ذات يوم واندفع الى الماء..

لم ينتظر طويلاً خشية ان يفلت المشهد من يديه. القى جثته في النّهر، فجرفه التيّار.

هذه المرّة، لم تظهر له زعانف، وذيل يحرّكه... فيستسلم لقسوة التيّار!

بعد ثلاثة أيّام تنفسّخ جثّته، فينقلها التيّار. تحتويها احدى شباك الصيّادين. يحسّ الصيّادانّ الشبكة ثقيلة. لا يصدقّ نفسه، لا يصدق نفسه حين يرى فيها جثّة، فيظنّها حوريّة البحر، لكنّ الجثّة لاتتحول الى تمثال ذهب، فيحزن الصيّادون. ويعودون الى المقهى، يتحدّثون عن الحوريّة،

فيقولون: انّ ماء النّهر قتلها لأنّها تعوّدت على الحياة في البحر المالح!

الدنمارك ـ ڤايلة ١٣ / ٣ / ١٩٨٦